ليس إلا مجرد خيال

ليس إلا مجرد خيال

الكاتب: كمال سامح

إخراج فني: الباشا عبدالباسط

رقم الإيداع: 8737 / 2020

الترقيم الدولي: 1 - 116 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع :**Facebook Page**

E_mail: bentelzayat1@gmail.com

Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم

01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

ليس إلا مجرد خيال

رواية

الكاتب

كمال سالم

إهداء

لكل شخص فقد مشاعره وإحساسه وأصبح قلبه مجرد عضو يضخ دمًا فقط.. وكل من يتوقع رد فعل ولم يجده، أتمنى أن يخفف هذا من كم الصدمات وكسرة القلوب التي تعرضتم لها.

الكاتب

v v v

المقدمة

لا يوجد إلا ظلام وهدوء، وكل ما حولك ساكن لا يتحرك، لم تسمع سوى دقات قلبك وصوت عقارب الساعة المزعج الذي يقول في كل حركة إن العمر يفوت وأنت ما زلت في جُحرك.

تستمتع بكل ما هو يؤلمك وتتذكر كل شيء مُحرج مرَّ عليك على مدار أيامك.

تبني خيالات وأحداث تعلن أنها لم تحدث قط، ثم يأتيك النوم ولا يرحم عقلك في أحلامك.

تنظر إلى الجدار الذي يشبه السجن ويضيق نفسك وصدرك وتشعر برغبة بالبكاء.

تريد أن تُخرج كل التراكمات والمخفي عن الناس، ولكن لن أقف هُنا؛ سأكمل طريقي.

V V V

حسام

13 ديسمبر 7:33 ص.

حسام شاب في الثلاثينيات من عمره.. يتميز بذكائه الشديد ونظرته الحادة كما ينظر الصقر إلى فريسته.. يُحب كل ما هو بسيط، بدأت طفولته في الإسكندرية في أسرة متوسطة تتكون من ثلاثة أفراد والديه وهو. لكنه فقدهم في حادث شنيع، ولم يُشاهد ضوء الفرح حتى وجد هذه الرسالة على الأرض أمام شقة جاره...

لا أعتقد أنها فكرة جيدة كانت هي سبب اختلال عقلي، وكان السبب هو الفضول.. الفضول قد يكون أداة قتل، يجعلك تُغامر بحياتك وتقدمها للموت هدية، أريد أن أعود يومًا واحدًا كشخص عادي. أشعر بالحياة مجددًا ولكن هذا ما يطلق عليه الموت على قيد الحياة، إلى من يقرأ هذا الكلام، أتمنى

أن تكون شخصًا عاديًّا، وتشعر بكل شيء، ابتعد عن الفضول ولا تقترب منه..

بعد أن قرأ حسام هذه الرسالة لم يفهم شيئًا ولم يفهم ما تقصد، ولوهلة لاحظ وجود حركة في شقة جاره المغلقة، فتقع الرسالة على الأرض فتظهر جملة (ابتعد عن الفضول ولا تقترب منه).

لكن لم يتحمل وقرر الدخول وكان هذا ما يحذر منه تارك الرسالة...

اقترب حسام بأذنه إلى الباب ثم بدأ في سماع أصوات أشخاص كثيرة تتحدث ولكن بلغة غير مفهومة، ولم يسمع هذه اللغة من قبل، فقرر حسام أن يطرق على الباب، بمجرد لمسه للباب توقفت جميع الأصوات وساد صمت رهيب، فاستمر في قرع الباب ولكن لم يُجِب أحد.

بعد مرور مدة ليست كبيرة وهو أمام الباب ينتظر حدوث شيء ولكن صمت تام فأثار هذا فضوله أكثر فسمع صوت حركة على السلم فعاد إلى شقته مسرعًا ومعه الجواب وأغلق الباب والأدرينالين يتدفق في جسده كله، فبدأ صوت خطوات أقدام في الاقتراب أمام شقته، وقلبه من سرعة النبض قد يولد كهرباء من التوتر والخوف، ثم اختفت هذه الخطوات، ولكن أين يذهب الفضول؟! يريد أن يعرف من في الخارج، فاقترب من الباب وفتح منه

مسافة صغيرة حتى يرى فقط من بالخارج، فيُلاحظ أن باب شقة جاره يغلق، ولوهلة لم يفكر، أخذ يركض إلى الشقة وبدأ يقرع الباب كثيرًا ولكن لم يُجِب أحد، ففكر وقال داخل عقله: كيف؟ لقد رأيت شخصًا ما يدخل هذه الشقة الآن، هذه الشقة يوجد بها شيء غريب، ويجب أن أعرفه، وأعرف من صاحب هذا الخطاب.

عاد إلى شقته ثانيةً وكعادته يقرأ عدة صفحات من المكتبة الصغيرة التي يمتلكها ويذهب إلى النوم..

* * *

أشخاص كثيرون يتحدثون في شغب وفي تجمعات كثيرة، وهناك أطفال رُضع يتكلمون مثل رجل بالغ ومنازل غريبة قصيرة من الطوب اللبن على ما أعتقد، ويخرج صوت من جانب أذنه يقول:

- اوعى تفكر تدخل..

يستيقظ في رعدة وخوف وينظر حوله ويجد نفسه في غرفته، فقرر أن يدخل هذه الشقة ويعرف ما يدور بالدخل..

V V V

14 ديسمبر.

استيقظ وذهب إلى العمل، وبعد يوم شاق طويل عاد إلى المنزل، فقابل حارس العمارة وسأله عن صاحب هذه الشقة، فقال إنه اختفى ولم يعلم أحد بطريقه وصورته معلقة على الجدران وأرقام هاتف على من يجده..

صعد إلى شقته وجلس يفكر فيما حدث له في ليلة أمس والكوابيس التي لم تتركه طوال الليل وبجانبه فنجان من القهوة و(اللاب توب) أمامه يحاول البحث عما يحدث، ولكن كلها محاولات فاشلة، وفي صفحة من الصفحات لمح خبرًا جعله يفزع.

اختفاء شخص في ظروف غامضة.. على من يجده الاتصال على هذه الأرقام..

الخبر معه صورة.. صورة جاره!!

أمسك رأسه بسبب ملحمة التفكير التي تدور بعقله وقال بتوتر شديد :

- أنا لازم أدخل النهار دا الشقة دي وأعرف إيه اللي بيحصل أنا.. أنا مش هافضل كدا، أنا هاتجنن! بس أدخلها لوحدي ولا أكلم حد؟ أنا عرفت هاجيب مين.

يمسك الهاتف ويطلب صديقه الذي لم يعد صديقه ولكن لم يُجِب وفي المرة الثانية أجاب:

- ألو.. ألو.

= أيوة، مين معايا؟!

- حسام.. أنا حسام أنت نسيتني ولا إيه؟

رغم أنه لم يقابله منذ مدة كبيرة ولكن رحب به وكأنه تذكر أيام شبابه والأحداث والتفاصيل التي لن تعود أبدًا.

= حساااام، واحشني يا ابني، إيه فينك كدا؟

- أنا تمام يا صديقي.. باقول لك إيه، أنا عاوزك في حاجة كدا.

= خير يا حبيبي فيه إيه؟

- لا.. ما ينفعش في الموبايل، تلبس وتيجي لي دلوقتي.

= خلاص مسافة السكة وهاكون عندك، نفس العنوان ولا إيه؟

- آه.

= طيب أنا جاي.

- اوعى تتأخر يا عمر، مستنيك..

عمر صديق حسام منذ زمن بعيد، ولكن الأيام تفرق كل شيء، عمر متزوج وله طفل وزوجته توفت في حادث أليم، وبالرغم من كل هذا يتمتع بروح فُكاهية تغير من الأوضاع..

وصل عمر إلى المنزل ففتح له حسام في عجلة وأغلق الباب سريعًا.

- ادخل، ادخل بسرعة.

= إيه يا ابني عليك تار ولا إيه؟!

- يا ريت، الموضوع أكبر.

= طب فيه إيه؟ هتحكي وأنا على الباب كدا؟!

يسمح له بالدخول وأعد فنجانين من القهوة وبدأ بالتكلم وشرح له كل شيء، ولكن لم ينطق عمر بكلمة وظل يستمع إلى حسام ظانًّا أن الوحدة جعلته مُختلًّا.

- بس دا اللي حصل، وأنا عايز ادخل الشقة دي.

= طيب ادخل، أنت عايزني أنا في إيه؟

- أنا مش عايز أدخل لوحدي.

فيرد عليه عمر مع ابتسامة ساخرة:

= إيه! خايف ولا إيه؟

- لا يا عم الخفيف، بس عشان لو حصل حاجة تكون أنت شاهد معايا.

لم يقتنع عمر في البداية واعتقد أن حسام مُختل حقيقي، لكن عندما رأى الخطاب وقرأ المكتوب به وشاهد الإصرار في عين حسام وفضوله الذي يشع من كلامه قرر أن يدخل معه.

- خلاص أنا معاك.. بس باقول لك إيه، أي حاجة نلاقيها بالنص.

- ياعم هو احنا داخلين مقبرة فرعونية..

أكملا حديثهما عن الحياة، وماذا فعل كل منهما بعد الخروج من الجامعة، ولكن ليس هذا نهاية المطاف؛ بل البداية، وقد تكون البداية أسوأ من جميع النهايات.

V V V

الإيمان بفكرة ما يستحق التضحية.. ولِمَ لا نموت من أجل فكرة نؤمن بها؟!

ولكن ليس كل الأفكار تستحق الإيمان أو التضحية....

V V V

بعد فترة ليست كبيرة...

عالم غريب، أشخاص أغرب، يتحدثون لغة غير معروفة، والأرض ليست سالبة ولكن جافة، وسماء حمراء مثل الحمم البركانية ودرجة حرارة شبه مرتفعة، وهناك أحد ترك رسالة في يد حسام، ولكن لم يستطِع القراءة وقطع كل هذا بصوت عالٍ:

= حسام.. يا حسام، اصحى، إيه يا ابني؟ كل دا نوم!

عمر يأتي ومعه الأدوات التي يريد أن يقتحم بها الشقة، وفي عينيه نظرة جشع وطمع ولكن لا يعلم ما قد ينتظره خلف هذا الباب.

- فيه حد يصحي حد كدا؟!

يتحدث حسام لعمر في غضب وحاول أن يتذكر بماذا كان يحلم فلم يتذكر أي شيء، فاعتذر عمر لحسام وقال:

= يلا، جاهز يا حسام؟

- جاهز... بس استنى على نص الليل علشان ما حدش يحس بينا.

= إيه شغل الحرامية دا يا عم؟!

يقولها عمر مع ابتسامة ساخرة مستفزة.. وافق عمر وقرر الجلوس مع حسام حتى آخر الليل.

* * *

17ديسمبر 1:43 ص

ساعة الذئب كما يقال، حيث يحل الصمت وتحلك السماء في شتاء ديسمبر القاتل ويصحبه توتر مع فضول وخليط من الجشع.

فهذا هو الوقت الذي ينتظره حسام ولكنه ليس من أجل المال ولكن لإشباع رغبة الموت (الفضول).

يخرج حسام وعمر من جُحرهما، وفي طريقهما إلى الشقة القابعة في الدور الأرضي، ثم يُخرج عمر أدواته في هدوء، ويحاول كسر الباب ولكن الباب فتح لهما دون أي أدوات، وكأن الشقة ترحب بهما وتتطلب منهما الدخول.

فيتراجع عمر وحسام خطوة للخلف وزاد توترهما ولكن تقدم صاحب هذه الفكرة حسام وعمر ينتظر ولم يتحرك.

- يلا، انت مستني إيه؟

= مش مطمن.. متأكد إن مافيش حد جوَّا؟

يكمل حسام طريقه ولم يُبالِ بكلام عمر...

لم يجد إلا أثاثًا شبه قديم وطاولة وأوراق كثيرة فارغة، والجدار متسخ وغرفتين أمامه، وبعدما تأكد عمر أنه لا يوجد أحد بالداخل سوى حسام فقرر الدخول معه ولكن ليس لأجل حسام؛ من أجل الكنز.

ثم نظر حسام إلى عمر وقال:

- أنت هتدخل الأوضة اللي على الشمال وأنا هادخل اللي على اليمين.

وافق عمر، ولكن غرفة حسام لم يكن بها ضوء، أخرج الكشاف وسلط الضوء على الجدران، ثم الأرض لكنه لم يجد شيئًا، تقدم بخطوات في الغرفة فشعر بشيء غريب تحت أقدامه، أسفل السجادة! فحرك هذه السجادة فوجد بابًا خشبيًّا في الأرض ولكنه مغلق، ثم طلب حسام من عمر أن يأتي وسأله ماذا وجد في الغرفة.

فقال عمر: لا ما لقيتش حاجة.. أنت لقيت إيه؟

فأظهر له الباب الخشبي فلمعت عين عمر ولكن انتهر حسام الفرصة بطلبه: هات الحاجه اللي معاك خلينا نحاول نفتح الباب دا.

أعطاه عمر الأدوات وهو يراقب ما يحدث في الخارج مع صوت دقات حسام على الباب الخشبي، سمع صوتًا يتحدث من خارج الشقة فقام حسام سريعًا وعاد هو وعمر إلى شقته.

إنه أحد جيارنه (الحاج أحمد) رجل يعيش وحده، في العقد الرابع من عمره. قرع باب شقة حسام ليسأله عما حدث وما هذا الضجيج، فخرج حسام وكأنه لم يفعل شيئًا، المتهم برئ حتى تثبت إدانته، فقال حسام:

- مش عارف! أنا سامع صوت خبط وصحيت عليه.

فخرج عمر من جانبه يحاول أن يرى من يتحدث، فرأى جاره ولاحظ أنه يحمل بعض الأدوات الحادة، ولكنه لم يظهر شيئًا ثم رد جاره (الحاج أحمد):

= آه.. وأنا سمعت كمان.

فرد حسام والتوتر ظاهرعليه ناظرًا إلى عمر:

- باقول لك يا حج، هو مين اللي كان ساكن هنا؟

يظهر على وجهه الغضب ولم يرد عليه سوى بجملة تنهي الحوار:

= تصبح على خير يا ابني.

ذهب جاره ودخل إلى شقته وأغلق الباب، رأى حسام الأدرينالين ظاهرًا في وجه عمر وفي جميع جسده فسأله:

- إيه ما لك..؟

= قلبي وقع في رجلي.

- طب إيه هتكمل معايا ولا إيه؟

= لا لا أنت مع نفسك، أنا مش عايز أدخل السجن.

يقف حسام في خيبة أمل من صديقه وهو يتخلى عنه فذهب عمر وجلس يفكر في هذا الباب وماذا يوجد خلفه، أهو كنز أم ليس غير باب.. تلتف أفكاره حول عقله مثل ثعبان يلتف على فريسته حتى يمزقها، فقام حسام من مكانه وقال:

- يجب أن أُنهي هذا الموضوع، وأن أعرف ما هذا الخطاب، وماذا يوجد وراء هذا الباب.. إن غدًا لناظره قريب.

V V V

كل شخص ينتظر شيئًا لا يعلم ما هو ولا يعلم ماذا يكون، ولكن هناك شيء يُغير هذا الروتين ويجعلنا نعيش في راحة بال وأمان، ما هو ومتى يأتي؟ الله أعلم..

v v v

حسام نائم على طاولة ولا يشعر بشيء، وكأن أفكاره أرهقته، بجانبه أدوات عمر التي تركها معه. يستيقظ حسام ولا يفكر إلا في شيء واحد، يتصل به مديره في العمل..

- ألو.. يا حسام.

= صباح الخير يا افندم.

- بقالك كام يوم مش بتيجي ولا حتى أخدت أجازة، فيه حاجة معاك ولا تعبان؟

= لا يا افندم.. بس جدتي تعبانة، وأنا معاها، أول أما تكون أحسن هانزل الشغل على طول.

- دي آخر فرصة ليك يا حسام، لو ما جيتش هاعين حد مكانك.

يتنهد حسام ولا يبالي بعمله، هو يريد هذا الباب، يريد أن يعرف ماذا يوجد بالداخل...

يقطع تفكيره أحد يقرع باب منزله.

- مين؟!

= أنا عمر، افتح يا حسام.

يتجه حسام إلى الباب ويملؤه الغضب من صديقه الذي تخلى عنه، فتح له الباب وسمح له بالدخول.

- حقك عليَّ يا حسام، بس كنت متوتر وخايف، مش هاسيبك غير لما نعرف فيه إيه ورا الباب دا.

لم يرد حسام بكلمة، فقط يتأمل وجهه الذي لم يقل غير كلمة واحدة: المال.. ولم يظهر حسام ما رأى في وجه عمر ثم اتفقا أنهما سوف ينهيان هذا الأمر الليلة..

يجلسان ولم يتحدث أحد منهما إلى الآخر، وينظران لبعضهما البعض، فقط كل منهما له غرض.

* * *

الساعة 12:21 ص

ها قد أتت اللحظة، هل يدخلان ويحققان أغراضهما أم لا؟

يستعد عمر وحسام للخروج وهما يعلمان طريقهما، هل تتذكره..؟

يفتح حسام الباب وخلفه عمر ثم يتنهد لفتح باب آخر، باب الأحلام أو باب الكنز أو باب قبرهما..

في كل خطوة يخطوها حسام يشعر بالتوتر والخوف ويصحبه إشباع رغبة الموت.. (الفضول)، دخل حسام الغرفة وعمر يقف خلفه يستمع إلى حركة الأشخاص التي بالخارج.

يحاول حسام فتح الباب ثم يحاول ثم يحاول، وها هو قد أصيب بنوبة الهلع، يحاول فتح الباب سريعًا وعلى وجهه التوتر والأمل، وفي لحظة فتح الباب!!

يركض عمر سريعًا إلى حسام حتى يرى الكنز وحسام يقف مندهشًا وعمر، ولكن لم يوجد غير سلم خشبي طويل يتصل بالباب وتحت الأرض، ينظر حسام لعمر فيرد عمر:

- لا ما تبصليش أنا.. أنا مش هانزل.

لم ينطق حسام لأنه اعتقد أن هذا كل ما يُريد حسام، وفتح الباب وهو يعلم ما خلفه ولكن ازداد فضوله أكثر عندما رأى السلم.

يريد النزول ولكن لا يعلم ما ينتظره تحت الأرض، ثم قرر النزول فيقطعه عمر:

= استنى، أنت رايح فين؟

- أنت مش قُلت مش هتنزل؟ سيبني؛ أنا هانزل..

= استنى بس، إحنا ما نعرفش فيه إيه تحت ولا إيه اللي هيحصل لنا.

- ما هو دا اللي عايز أعرفه...

فبدأ حسام بالنزول، مع أول درجة من السلم ينظر إلى عمر وحول الغرفة ثم أكمل ما بدأه ونزل على الأرض فنادىَ عمر على حسام.

= إيه، فيه إيه عندك؟

لم يرد حسام بسبب ما رأى...

رأى سردابًا طويلًا مُنيرًا من كل زاوية ولكن رائحته كريهة فلم يفكر وسار مع السرداب وترك عمر، وأثناء سيره وجد بابًا آخر، ولكن هذا ليس بابًا؛ إنها بوابة كبيرة ضخمة، وقف مكانه يفكر وهو خائف ويتأمل البوابة، فأخذ القرار ثم حاول فتح البوابة، حاول محاولات كثيرة وها قد فُتحت البوابة....

V V V

التسرع في اتخاذ القرارات ليس له سوى نتيجة واحدة، وقد تُنهي ما بدأته من البداية...

v v v

عالم غريب، أشخاص أغرب، يتحدثون بلغة غير معروفة، والأرض ليست صلبة لكن جافة، وسماء حمراء مثل الحمم البركانية، ودرجة حرارة شبه مرتفعة، هل تتذكر هذا المشهد؟! لقد رأيته من قبل في أحد أحلامي!

أشخاص كثيرون بهيئات مختلفة وكثيرة، هناك أصحاب الشعر الكثيف والقصير، وهناك أيضًا الأصلع وصاحب الجسد الكبير..

فدخلت وذهبت داخل هذا العالم الغريب وهم ينظرون لي نظرات يصطحبها تعجب مع فضول، ليس لأنني وسيم؛ بل لأنني غريب عنهم ولكن لم أعرف السبب!

تسرق نظري منازل قصيرة غير منتظمة، عليها نقوش وعبارات غير مفهومة، وأشخاص يجلسون أمام هذه المنازل وينظرون لي بخوف ويحتضنون أولادهم، كأنني لص سوف أسرق أطفالهم.

ثم يوقفني شخص غريب قصير له شعر كثيف ملابسه شبه متقطعة ولا يوجد حذاء في أقدامه، يتكلم ولكن لم أفهم ماذا يُريد!

لم أسمع قط بهذه اللغة، ثم بدأ هذا الغريب في الإشارة بيده، لم أعلم ماذا يقصد، فبدأ بالصراخ، لا أعلم ما السبب، أحاول أن أهدئه ولكن يزداد صوته، لا أفهم ماذا يقول، فالتف حولي أشخاص يحملون أشياء في أيديهم أشبه بسيوف، ليس أمامي خيار غير الرجوع إلى البوابة، ينظر خلفه لم يجد سوى الحُراس والبوابة اختفت.. عليه أن يواجه مصيره، ولكن لوهلة قرر الهروب فبدأ بالركض وخلفه الحُراس يركضون وهو لا يعلم أين يذهب، فكان يدخل من بين البيوت وخلفه جيش لا يعلم كيف ينتهي هذا ولماذا يريدون الإمساك به.

وبعد الركض لمسافة كبيرة ينظر خلفه، لكنه لم يجد أحدًا، فوقف يلتقط أنفاسه، فوجد بجانبه بركة مياه صغيرة والمكان فارغ لا يوجد به أحد، ولكن هناك شخص لم أستطِع أن أُحدد ملامحهُ فاقتربت منه، وجدتها امرأة وحولها قطط كثيرة وأشياء غريبة وكتاب مفتوح أمامها لم أفهم ما المكتوب، فنظرت في وجهي فشعرت بقلبي يسرق مني وقالت كلامًا كثيرًا ثم صمتت فبدأت الإشارة بيدها تعني أن أجلس فجلست بجانبها، كانت تقول كلامًا كثيرًا،

وبعده أمسكت بقطة كانت تجرحها من بطنها ثم بدأت تنزف القطة كثيرًا، لم أشعر بشيء غير أني أنقض على هذه الملعونة لأوقفها، فوضعت يدي حول رقبتها وأنا أشعر بضربات قلبها السريعة وصوت أنفاسها الذي يقل ولكن أبتعد سريعًا فلم تتوقف عما كانت تفعله، فوقفت وأعطتني كأسًا وهذه الكأس ممزوج بها دم القطة، إنها تُريدني أن أشرب من هذه الكأس، دفعتها بعيدًا وبدأت في الركض مجددًا.

لم يعرف إلى أين يذهب، أشبه بطفل تائه من أمه في مكان لم يعرف به أحد، وكل ما يتمناه هو العودة، ولكن إلى متى سيستمر هذا الأمر؟!

ينظر حوله وهو في ندم على فضوله الذي سوف يقتله.. ألا يوجد أشخاص يمكنني التعامل معهم ليساعدوني على العودة! وأن أخرج من هذه الدائرة. إلى أين أذهب؟ وكيف سأعيش؟ يقطع تفكيره شخص يحملق في وجه حسام المختلف عنهم ولكن هذا الغريب أيضًا مختلف عنهم، له شعر كثيف ولحية قصيرة وعيناه زرقاوان ولبسه ليس سيئًا مثل باقي الناس.

لقد فوجئ عندما بدأ التحدث كأنه ملاك المعونة المرسل من الله:

- ماذا بك أيها الغريب؟

بدأت أُحدثه باللغة العربية لأنه لن يفهم العامية.

= إنني تائه ولا أعلم أين أنا وكيف أعود...

- من أين جئت؟

= جئت من الإسكندرية.

اندهش وبدأ النظر إليَّ نظرات غريبة.

- لا أعلم ما هي الإسكندرية، ولكن أعتقد أنك بعيدٌ جدًّا عن بلدك.

يمر شخص بجانبي وينظر إليَّ فتكلم معه هذا الشخص الذي لم أعلم اسمه حتى ولكن تكلم باللغة الغريبة مثلهم ولا أفهم ماذا قال.

= ماذا كنت تقول؟ وكيف تعرف لغتهم وتستطيع التحدث بالعربية؟

يضحك ضحكة ساخرة ويقول:

- إنني مثلك يا صديقي، غريب عن هذه المدينة ولكن عشت فيها كثيرًا.

يرد عليه حسام وهو يريد معرفة كل شيء عن هذه المدينة بعد أن علم أن العودة شبه مستحيلة.

= أريد أن أتعلم هذه اللغة وأحتاج المزيد من المعلومات عن هذه المدينة.. اعذرني لم أعرف اسمك حتى الآن.

- مالك.. اسمي مالك.

= أنا حسام..

- أهلًا بك يا حسام في أرض الخلاء والفراغ.

لم يفهم حسام ماذا يقصد مالك بكلامه، أيسخر مالك من حسام أم يقصد شيئًا آخر؟!

يتأمل حسام هذه المدينة، إنها كبيرة، ولكن لا يوجد بها جهاز تكنولوجيا، فقد علمت أنني في العصر الذهبي كما يطلق عليه البعض. عالم دون تكنولوجيا، طريقة التواصل الوحيدة هي الخطابات ولا أعتقد أنها مُستخدمة هنا كثيرًا، ولا يوجد شيء ملفت للانتباه، لا يوجد سوى هدوء وسكون، أصوات الهواء تتخبط، ولا أحد يتكلم.

- مالك! ممكن سؤال؟

= تفضل..

- ليه الهدوء دا كله؟ والناس ماشية ولا كأن فيه حد في المكان غيرهم، وما حدش بيتعامل مع حد!

= لم أفهمك ولم أفهم لهجتك ماذا تريد؟!

لقد نسي أنه يتحدث العربية وليس العامية.

- اعذرني..لمَ الكل متباعد هنا وليسوا اجتماعيين، جميعهم ساكنون.

= وهل هذا يزعجك؟

- بعض الشيء...

ينظر إلى حسام ولم ينطق بشيء، وهما يسيران ولا يعلم إلى أين سوف يأخذه هذا (المالك)، وفي أثناء طريقهما لاحظ حركة الجنود وهي تسير حولهما، فيحاول الاختباء لكن أوقفه مالك..

- ماذا بك؟ لماذا تحاول الاختباء؟!

= إنهم يحاولون الإمساك بي..

يهز رأسه مع تدقيق النظر في هيئة وملابس حسام.

- لأنك ترتدي ملابس غريبة وهيئتك غريبة، أنت غريب فهذا طبيعي.. تعال معي إلى منزلي، أعيش وحدي وسأعطيك ملابس تشبهنا.

يفقد حسام الأمل في العودة ويستسلم للواقع ويرد على مالك مع ابتسامة يأس.

= أشكرك.

تخيل أنك تائه في أرض لا تعرف حتى لغتها، وهذه الأرض تنظر إليك كشخص من على القمر.. خائف.. الوحدة انتشرت في الهواء أكثر من ذي قبل.

- تفضل..

يدخل حسام منزل مالك البسيط، ليس سيئًا، لكن الأثاث يشبه أثاثًا رأيته من قبل، وهذا المنزل له نفس الجدران، إنها هي.... الشقة الملعونة.

يلاحظ مالك نظرات حسام ولا يعلم لها تفسيرًا فقطع تفكيره وقال:

– ما رأيك في منزلي؟ إنه قديم بعض الشيء ولكنه يفي بالغرض.

لم يتكلم أو يعلق حسام، ما زال كما هو يحملق وينظر إلى الغرفة، غرفة هي التي أسقطته في كل هذا، فتكلم مرة أخرى مالك:

= هل أنت بخير؟!

– نننعم.. نعم، إنني بخير، فقط أفكر كيف سأرحل.

إنني أكذب، إنني أفكر في كيف أدخل هذه الغرفة وأجد هذا الباب وأعود إلى حياتي.. ثم يبتسم ابتسامة سُخرية ويقول:

أعود إلى حياتي، ما هي حياتي؟ وماذا كنت أفعل؟ لا يتغير الوضع كثيرًا، وقد يكون هنا أفضل؛ لأنني لن أعيش وحدي ومعي من يشاركني.

يقطع مالك تفكيره ليأخذه في جولة في منزله الصغير، ولا يبالي حسام بما يقوله مالك حتى دخلا إلى الغرفة.. رأى الطاولة والسجادة، فاتجه نحو الطاولة وحاول أن يحركها دون أن يلفت انتباه مالك، فلم يجد الصوت الخشبي الذي شعر به عندما دخل هذه المدينة، فارتعش قلبه والتوتر بدأ يظهر عليه فنزل على ركبته ليرفع السجادة فدخل مالك فلم يستطِع حسام رفع السجادة فقام مرتبكًا:

= لماذا أنت جالس على الأرض؟

– لم أجلس؛ لقد سقط مني شيء وأحاول البحث عنه وها قد وجدته.

قلب مالك لم يسترِح لحسام؛ إنه غريب بالفعل، وهناك شيء كبير يحاول فعله، فيقطع حسام نظرات مالك له ويقول:

= إنني جائع، هل لديك طعام؟؟

– ما هو الطعام؟!

يضحك حسام، يعتقد أنه يمزح، فقال له مرة أخرى:

= طعام! شيء يؤكل.. مع ابتسامة سخيفة.

– لا أفهم شيئًا مما تقول.

يصمت حسام ولا يعلم ماذا يقول فنظر له مجددًا وسأله:

= كيف تعيش ويومك كيف يسير؟؟

– أذهب إلى العمل وأعود إلى المنزل...

= لا أقصد هذا، إنك لا تأكل، فكيف تعيش! وهل تشرب الماء أم لا؟!

يقول هذا وهو يمزح ولا يتوقع إجابة نافية لهذا:

– نحن لا نشرب الماء؛ نقدسه فقط.

ينظر حسام إلى مالك وهو في هستيريا من الضحك، وقف عقله عن التفكير ولسانه عن الكلام..

كيف سأعيش أنا؟ إنهم أصنام! لا يأكلون ولا يشربون، فقط يعيشون للعمل، ولكن العمل ليس لأجل الطعام أو هذه المتعة، العمل لأجل العمل، إنهم الغرباء لست أنا..

= هل هناك شيء آخر لتفجائني به أم هذا كل شيء؟

- لقد قلت لك إنها أرض الخلاء والفراغ..

يصمت مالك لثوانٍ ثم يتكلم...

= أنا آكل وأشرب كالأشخاص الطبيعيين، لكنني أصف لك حال هذه المدينة.

وكأن حسام كان غريقًا وتنفس الهواء مجددًا.

- الحمد لله.. لكن لماذا قلت إنك لا تأكل أو تشرب وقلت نحن وليس هم!

= لأنني لا أستطيع أن أقول إنني غيرهم، وإلا كنت سأعيش في مطردة مثلك..

ينتهي الحوار ويدخل مالك غرفته ويجلب ملابس لحسام، لم يتكلم، يأخذ الملابس، التي هي عبارة عن جلباب قصير وبه رقع كثيرة.. يرتديه وينظر لنفسه في مرآة صغيرة على الجدار ويقول..

لقد أصبحت أشبه أهل هذه المدينة التي لا أعلم اسمها حتى.. لا أعرف كيف سأعود، أو كيف أتعامل معهم، إنهم يريدون قتلي، ولا أعلم حتى السبب ولكن سأجد له حلًّا...

يحل الليل ويأتي معه كل ما هو حزين، لقد اشتقت لمنزلي اشتقت لعملي الذي سوف أطرد منه غالبًا.. يأتي مالك بطعام وماء وكأنه أتى بطوق النجاة، يضع الطعام على الطاولة في الغرفة الملعونة ثم يجلس ويطلب مني الجلوس أيضًا.

- لا أحد يعلم بهذا.. لا أريد أن يأتي إليَّ الجنود يوميًّا.

= لا تقلق سرك في بئر.. ولكن أخبرني كيف جئت إلى هنا وأنت لست منهم؟

- سأخبرك... لكن الآن تناول طعامك.

= حسنًا.. لقد حدث شيء غريب عندما وصلت إلى هنا!

- ما هو الغريب يا أيها الغريب (مع ابتسامة خفية).

= عندما وصلت والجنود كانت تطاردني وأنا أهرب لا أعلم إلى أين أذهب وجدت في طريقي امرأة غريبة تجلس بجانب بحيرة صغيرة، عندما تأكدت أن لا أحد خلفي جَلستُ بجانبها ولكن لم تتفوه بكلمة، وكان حولها قطط كثيرة، فأمسكت بقطة وبدأت تجرحها والقطة تتألم وهي في صمت

غريب فنزفت القطة كثيرًا... حيث وضعت الدم الذي يسيل من القطة في كأس وقدمتها لي لأشربها، لكن لم أتمالك أعصابي ولم أشعر بشيء غير أنني أمسك برقبتها، أحاول أن أوقفها عما تفعله، شعرتُ بروحي وهي تسحب مني، فقفزت في الحال وتركتها وذهبت، فماذا كانت تفعل؟! هل هذه طقوس للمدينة أم إنها مشعوزة؟!

كان يستمع مالك ولم يقطع حسام.. فرد مالك:

- في الصباح.. في الصباح سأخبرك بكل ما تريد.

يوم آخر ولا أعلم شيئًا في هذا المجتمع الغريب ولا أعلم حتى اليوم...

- حسام يا حسام.. استيقظ يجب أن نذهب للعمل وإلا أمسك بي الجنود أنا أيضًا..

يستيقظ حسام وهو ينظر لوجه مالك الممتلئ بالنشاط فيبتسم ويقول له:

= إذا كنت بهذا النشاط في عالمي لكنت أصبحت مُديرًا.

يضحك مالك ويطلب من حسام أن يرتدي ثيابه.. فقام حسام وبدل ملابسه وخرجا معًا.

يشاهد نفس المنازل القصيرة والأرض الجافة والشمس الحارقة وينظر في أوجه الناس، لم يجد شيئًا، لا يوجد حزن أو فرح، فقط أصنام متحركة.. ينظرون إليَّ نظرات مريض مرض (البهاق) يبتعدون عني ولكنني لا أُبالي،

فقط أكملت طريقي مع صديقي.. لم يكن لي صديق في حياتي العادية يفعل مثل مالك، إنني أنظر في وجه لا يشبه هؤلاء الناس.. فرحت للحظة أنني لم أكن وحدي، لدي من يشاركني طعامي.. كلامي.. وعملي.

– ها قد وصلنا يا حسام، هذا هو المكان.

يتكلم مالك مع صاحب هذا العمل وأنا أقف مندهشًا ما هذا المكان.. إنه رائع، لا أعتقد أن هذا المكان جزء من المدينة.. الأرض ممتلئة بالمحاصيل الخضراء، وهناك أشجار كبيرة في كل مكان، وأحصنة منتشرة في هذه الأرض، أعتقد أنه (إسطبل) يقطع مالك تأملي ويقول لي:

= هذا هو مكان العمل، سوف تعمل معي ولكن أنت ستكون في الفترة الليلية.

ليس لدي اختيار آخر غير أنني أوافق لكي لا يشك بي أحد، حتى أجد طريقة للعودة ولكن هناك مشكلة...

– مالك.. إنك نسيت أنني لا أفهم لغتهم كيف سأتعامل معهم؟

= سآخذك معي لأحل هذه المشكلة.

– إلى أين سوف نذهب؟!

= لماذا أنت كثير الأسئلة؟ ستعرف كل شيء.

يتحرك مالك وحسام خلفه لا يعلم إلى أين يذهب وماذا سيفعل به، فقط يسير معه، يمر الجنود كالعادة في الطريق وهو يحاول الاختباء، لكنه في هذه المرة مختلف، يرتدي ثيابًا مثل أهل المدينة فقل توتره عن ذي قبل.. اختفى الجنود وأكمل سيره، ينظر حوله، يتذكر هذا المكان. لقد جاء هنا من قبل، إنها هي، هي المشعوزة، يقف حسام عن السير ويتشبث بذراع مالك ويقول في نبرة غضب:

– إنها هي المشعوزة، لمَ لم تقل أننا سوف نأتي إليها؟!

لم يتكلم مالك ثم اتجه إلى هذه المرأة وبدأ يتكلم نفس لغة المدينة، وأنا أقف خلف مالك، تنظر إليَّ نظرة تجعلني أرتجف من الداخل، ثم نظر إليَّ مالك وقال:

– افعل كل ما تطلبه منك.

= أفعل كل ما تطلبه مني؟ هل تقصد أن أشرب دم القطة؟!

– نعم.

= نعم!...هل اختل عقلك؟! لن أفعل هذا أبدًا.

– لا تفعل، ستظل لا تفهم من يكلمك ولا حتى تقدر أن تعيش في هذه المدينة.

= هل يوجد حل آخر غير ذلك؟

- إنها الوحيدة القادرة على جعلك مثل أهل المدينة.

= هل فعلت ذلك من قبل؟

- عندما وصلت كانت هي أول من قابلتني وأعطتني وشربت ولم أعترض مثلك.

يأخذ نفسًا عميقًا، ثم يأخذ الكأس من يدها، ويبدأ في الشرب من الكأس وهو يشعر بقشعريرة تَسري في جسده..قبل أن ينتهي شعر بدوار لم يستطِع الوقوف على قدمه فسقط الكأس من يده ثم سقط هو معه، يحاول مالك مساعدته.

ثم بدأ بالتحسن فوقف على قدمه وسمع صوتًا:

- أعتقد أنك أفضل الآن.. لقد قلت لك إنك سوف تعود.

هذا ليس صوت مالك إنه صوت المشعوزة..

تتحدث إلى حسام مع ابتسامة سخيفة وشعرها الخشن وملابسها الممزقة وأسنانها الصفراء.

يشكرها مالك ويمسك بيدي ويسحبني مثل طفل صغير يتشبث بيد أبيه ونعود إلى المنزل، يلقي حسام جسده على فراشه وهو يرتعش ولم يتفوه بكلمة ويغرق في النوم.

تحاوطه الكوابيس والأحلام المفزعة تجعله يستيقظ من حين لآخر...

يحل صباح يوم آخر لا أعلمه لكنني أعلم أن التاريخ، هو 980!!

إنني في زمن بعيد عن عالمي، قد لا يوجد منزلي أو منطقتي في هذا الوقت ولكن لا أبالي.

يأتي مالك ومعه الإفطار.

- تفضل..تحتاج إلى غذاء.

= إنني لا أشعر بالجوع الآن!

ينظر مالك لوجه حسام ثم يعود إلى غرفته ومعه الطعام، يندهش حسام من نظرة مالك له، هناك شيء وراء هذه النظرة.

ينهض حسام من على فراشه ويذهب إلى غرفة مالك ويسأله:

- ما بك ولما هذه النظرة الغريبة؟؟

يتحدث مالك وهو يظهر عليه التوتر..

= لا.. لا شيء.

لم يصدق حسام مالك وكان يشك به، وامتلأ حسام بالغضب وأمسك بثياب مالك.

- ماذا حدث يا مالك أخبرني، لا تخفِ عني شيئًا.

= سوف أقول لك، لكن تمالك أعصابك.

- إن لم تتحدث الآن سأريك أعصابي وهي تتمالك.

= الذي شربته من هذه العجوزة إنها وصفة تجعلك تفهم لغة هذه المدينة.. وتجعلك أيضًا فاقدًا للشعور.

يضحك حسام ضحكة سخرية من كلام مالك.

- كيف تجعلني فاقدًا للشعور؟!

= تجعلك لا تأكل.. لا تشرب.. لا تشعر بالحب أو الكره تكون كالأصنام مثل أهل المدينة.

لم يتكلم حسام، فقط ينظر إلى مالك وهو يتحدث، فوقف حسام واتجه نحو مالك فخاف منه ثم أوقفه وقال له:

- اهدأ يا صديقي لدي الحل..

= وما هو؟! نعود مرة أخرى لهذه المرأة؟

- لا... ليلى.

= ومن هي ليلى؟

- ستعرفها عندما نذهب إليها.

= انتظر يا مالك قبل أن نذهب أريد أن أعرف قصتك وكيف وصلت إلى هنا.

V V V

مالك

رجل في عقده الثالث، يعيش مع أهله، يتميز بلون شعره الذي يميل إلى الاحمرار ولحيته تشبه شعره، لكنه قصير نحيف.. متزوج وليس لديه أطفال لوجود مشكلة به، يكره الخلافات الكثيرة بسبب هذا الموضوع.. حصل على البكالوريوس من كلية هندسة البترول، لا يحب هذا المجال، لكنه مضطر حتى يجلب المال من أجل زوجته.. يسكن في إحدى دول الخليج.

- عليك الذهاب إلى الطبيب يا مالك لديك موعد معه اليوم.

تحمر بشرته البيضاء من كثرة الغضب من زوجته.

= لقد قُلت لكِ لن أذهب هناك مرة أخرى.. لقد سئمت من العلاج وكلام الطبيب الذي ليس له فائدة، اتركي الأمر بيد الله..

ينهي مالك الحوار ثم يرتدي ملابسه ويأخذ معه أدواته ليذهب إلى العمل.

ذهبت إلى موقعي في إحدى دول الخليج وبدأت الحفر في جزء من الأرض، وبعد حوالي 100 متر أو أكثر من الحفر، وجدتُ شيئًا ملفوفًا بقماش مهترئ مقطع، شيئًا له لمعة تجذب العين، فأسرعت حتى آخذه دون أن يلاحظ أحد.. التقطه من الحفرة وفتحته.. إنه مفتاح! مفتاح كبير له نقوش غريبة من الأعلى.. أخفيته قبل أن يراني أحد وأكملت الحفر حتى أنهيت هذا الجزء.

ثم ذهبت إلى المنزل حيث المشاكل التي لا تنتهي.

تفتح له زوجته ذات الوجه العابس وتقول له:

- أحضر لك العشاء؟!

هو لا يُبالي بشيء، كل ما يفكر به ما هذا المفتاح! ولماذا دُفن هُنا!!

= مالك! إنني أتحدث معك، استمع لي حتى ولو مرة واحدة..

- لا أريد أن آكل، سوف أنام لأنني مرهق.

ظل يفكر طوال الليل عن سر هذا المفتاح، قد يكون مفتاح الخير والأمل، مفتاح كنز مخبئ، أو إنه مفتاح قديم عديم الفائدة، ثم أرهقه التفكير وقرر الذهاب إلى النوم...

يستيقظ على صوت نغمة منبه المزعجة، وكعادته يشرب قهوته قبل الذهاب إلى عمله من يد زوجته، وهذا أجمل شيء تفعله في حياته.. يذهب كل ما يشغل تفكيره، كيف أعثر على هذا الكنز؟!

عاد إلى موقعه وقرر الحفر في نفس المكان على أمل وجود شيء.. وبعد حفر استغرق نصف يومه لم يجد شيئًا، أصابه الإحباط الشديد، حتى طلب منه أحد أصدقائه في العمل المساعدة..

- مالك، أيمكنك أن تراقب الماكينة حتى أعود؟

= إلى أين أنت ذاهب؟!

- سآخذ راحة قصير لأنني أشعر بالتعب.

= تمام يا صديقي، لكن لا تتأخر.

يقف مالك يراقب الماكينة، ويذهب عقله إلى المفتاح ويخرجه من حقيبته حتى يجد أي دليل أو إشارة لمكان الكنز، وتقطع تفكيره الماكينة التي كانت تصدر أصواتًا غريبة.. يغلق الماكينة سريعًا وينظر لتلك الحفرة ويندهش!! كانت حفرة عميقة مظلمة ولكن يوجد سلم، إنها حفرة ممهدة، بعد نزوله أول درجة هذه ليست حفرة.. هذا سرداب...

يقطع حديث مالك وحسام صوت أحد في الخارج يقرع الباب.. يتجه مالك نحو الباب ويسأل:

- مَن.. مَن في الخارج؟؟

فيرد بصوت غليظ ويقول:

= لا تسأل، افتح هذا الباب.

فيطلب مالك من حسام الاختباء لأنه يعلم أنهم يبحثون عنه.. فدخل حسام إلى الغرفة يحاول أن يجد مخبئًا، فليس له مخبأ سوى الظلام..

ففتح مالك الباب فوجد شخصًا طويلًا له بنية قوية، يرتدي ملابس جنود المدينة، يسأله بصوته المزعج:

– هل سمعت عن الغريب الذي أتى إلى المدينة؟!

= غريب!! لا.. لم أسمع.

يظهر عليه التوتر والقلق.

– لمَ يظهر على وجهك التوتر؟ أهناك ما تخفيه؟!

= ما هو الشيء الذي أخفيه يا سيدي؟! لا يوجد شيء، ولكن إذا عَلمتُ أين يكون هذا الغريب سأخبرك.

يذهب هذا العملاق وهو يشك بمالك، يعرف أنه يخفي شيئًا ما.. فخرج حسام من الغرفة، ينظر إلى مالك وهو لا يشعر بشيء، لكن يعرف ما هو الشعور في هذا التصرف، فيقول حسام لمالك وهو يحاول أن يتظاهر بشعور العبئ.

– أعتذر لك يا مالك كثيرًا، لقد أتيت وجاءت معي المشاكل ولكن أعدك حينما أجد الباب سأذهب على الفور لكنني أحتاج إلى مساعدتك.

فيرد مالك على حسام بنظرة عتاب:

= لا..لا تقل هذا، يجب عليَّ مساعدتك، ليس لأنك تائه؛ بل لأنك أخي وصديقي، أتعلم أنني عشت هنا كثيرًا لا أتكلم مع أحد سوى أوراقي، أدون وأكتب كل ما يحدث لي، لكن الآن استغنيت عن هذه الأوراق، لا أحتاج لها وأنت موجود.

يبتسم حسام بسبب كلام مالك ويقول له:

- ألن نذهب إلى ليلى حتى أسترد قلبي بدلًا من هذا الحجر؟

= نذهب يا صديقي.

يتجهزان للخروج، مالك في المقدمة يتفقد الأحوال، يفتح الباب وينظر يمينًا ويسارًا كاللص ويخرج، ثم أعطى إشارة لحسام للخروج، يخرج حسام وهو يرتدي وشاحًا قصيرًا على وجهه حتى لا يتعرف عليه أحد.. وهما يسيران يشاهدان تجمعًا كبيرًا لأهل المدينة أمام قصر كبير ممتلئ بالأشجار والأراضي الخضراء، وهناك جندي يقف على منصة عالية وبجانبه جنود ممسكين بشخص مقيد، فيسأل حسام مالك:

- ما هذا ولمن هذا القصر وماذا سيفعلون بالشخص المقيد؟

= هذا التجمع يحدث عندما يمسكون بشخص له قلب ويشعر، وهذا القصر للملك، أما عن هذا المقيد سيلقى مصيره الآن.

- ماذا سيفعلون به؟ هل تقصد أنهم ؟!

يقطع حديثهما صوت الجندي وهو يمسك ورقة كبيرة بيده وبدأ يقرأ:

"أنا الملك أرخيدوس، لقد دعوتكم اليوم لتشاهدوا هذا الشخص الذي خالف نظام مدينتنا العظيمة، وشعر بالحزن! والدليل هو صديقه، قد اعترف أنه يشعر بحزن وألم من هذه الحياة، فقررت أنا الملك أرخيدوس بالحكم على هذا المذنب بالموت ونتخلص من العار الذي جلبه للمدينة".. يصمت لدقيقة ثم يأمر بتنفيذ الحكم بموته شنقًا والجميع يقف ولا يوجد هلع أو بكاء أو حتى ضحك، فقط ينظرون وأنا مثلهم أنظر ولا أشعر بشيء.

- مالك لنذهب قبل أن يلاحظ أحد وجودي ويكون مصيري مثله.

يذهبان ويكملان طريقهما لكن حسام شارد تمامًا يفكر في منظر هذا الشخص الذي شعر بالحزن وقتلوه.. يجب أن أرحل من هنا، لا أريد أن أموت في هذه المدينة التي لا أعلم اسمها حتى، فيسمعه مالك لأن صوته كان عاليًا نوعًا ما.

= لا تخف، لن تموت هنا، سوف تعود إلى وطنك.

- لا أريد أن أسمع ذلك، أريد أن أعرف ما هذه المدينة التي تقتل الذي يشعر، ما اسمها؟! ما تاريخها؟!

= أنت لا تمل من كثرة الأسئلة! ولكن سأحكي لك كل ما أعرفه، استمع فقط.

- لن أعدك بأنني سأسمع فقط، لكن اجعلنا نذهب أولًا من هنا ثم تكلم.

= سنذهب إلى ليلى لكي تعود إلى طبيعتك، وبعد ذلك أحكي لك تاريخ هذه المدينة.

يشير حسام برأسه بالموافقة وأكملا طريقهما حتى وصلا إلى منزل ليلى. ليس منزلًا كبيرًا ولكن له ذوقًا خاصًّا يختلف عن منازل أهل المدينة، توجد على جدار المنزل من الخارج نقوش وألوان تجعل المنزل جميلًا ويلفت الانتباه، فقرع مالك الباب.

- مَن بالخارج؟

صوت هادئ ناعم من داخل المنزل سأل من الذي يقرع فيُجيب مالك:

= أنا مالك يا ليلى هل تتذكرينني؟

فتحت الباب فتاة تقترب من العشرينيات، قصيرة، شعرها ملفوف، لونه أصفر، وعيناها سوداوان تشبهان بشرتها السمراء، نحيفة الوزن.. تنظر إلى حسام وتسأل مالك وهي تنظر لحسام:

- من هذا يا مالك؟ ماذا يفعل هنا؟

= سأخبرك بكل شيء، ولكن اسمحي لنا بالدخول أولًا.

تشير لهما بالدخول وهي ما زالت تنظر لحسام. دخل مالك في المقدمة ثم حسام، أغلقت ليلى الباب وحسام ينظر إلى منزل ليلى البسيط، لا يوجد إلا أريكة وطاولة وملابس في كل ركن، فيجلسون على الأريكة وتتكلم ليلى:

- ماذا تريد يا مالك؟ ومن هذا؟

وفي وجهها خوف من أن يكون مالك قد أفصح عن سرها.

= لا تقلقي يا صغيرتي، نحن نحتاج مساعدتك فقط.

- وما هي المساعدة؟؟

= أريد الترياق الذي يجعلني أشعر من جديد.

- مجددًا! ألم تأخذه من قبل؟

= نعم أخذته، لكن هذه المرة ليس لي؛ بل لحسام.

تنظر لحسام في حيرة.

- حسام! إنك لست من أهل المدينة؟

يرد حسام بابتسامة خفيفة:

= نعم إنني غريب وجئت إلى هنا بالخطأ.

- أنت الغريب الذي يبحث عنه الجنود؟

= نعم.

- وماذا تريد أيها الغريب؟

= أريد أن أستعيد قلبي مجددًا.

- هذا ليس أمرًا سهلًا ولكن سأساعدك.

تخرج لفافة من القماش من تحت الأريكة ويظهر من تلك اللفافة زجاجة صغيرة تفتحها وتعطيها لحسام:

- تفضل، رشفة صغيرة.

فشرب منها حسام وأعطاها الزجاجة وسألها، ماذا سيحدث؟

= ستشعر بدوار ثم تفقد الوعي و.....

وهي تتكلم كانت هذه الأعراض بدأت تظهر عليه ثم فقد الوعي، استيقظ فوجد نفسه مُلقى على سريره في منزل مالك ولا يشعر إلا بشيئين.. الإرهاق والجوع.

- مالك، أين أنت يا صديقي؟ لقد بدأت أشعر بالجوع، أشعر أنني سوف آكلك.

يمزح مع مالك الذي يأتي حاملًا الطعام، يضعه لحسام على السرير ويرد عليه مالك أيضًا مازحًا:

= تفضل يا صديقي، لقد بدأت أدرك أن الشعور شيء سيئ.

- لا تهرب، لن أتركك حتى تخبرني بكل شيء..

= هل تعلم ما يدور في عقلي؟ أن أُسلمك للجنود حتى أتخلص من فضولك هذا.

- أتعرف أنت، إن فضولي هو الذي أتى بي إلى هنا..

= سيأتي يوم ويقتلك فضولك وأقتلك أنا.. سأذهب الآن أنا إلى العمل وعندما آتي سأشبع فضولك هذا.

- انتظر سوف أتى معك.

= لا لا إنهم يبحثون عنك، يجب أن تظل مختفيًا حتى لا يتعرف عليك أحد أيها الغريب واتركني أذهب.

يخرج مالك ويظل حسام في المنزل وحيدًا، يتذكر عندما كان وحده قبل أن يأتي إلى هنا.. ينهض من فراشه، يتفقد الأحوال من النافذة، يشاهد الأصنام وهي تتحرك ويسأل كيف لا يشعرون؟! قد يكون انعدام الشعور أفضل من أن أشعر، ولكن ما فائدتي إذا كنت مثل الأحجار؟! نظر إلى الطاولة وجد أوراقًا فقرر أن يفعل مثل مالك، جلس وبدأ يكتب ويحكي ما حدث له، كيف أتى إلى هنا ويكتب ويكتب ويكتب...

حتى حل الليل عليه وهو على هذا الوضع، ثم يفزع قلبه فجأة، صوت أحد أمام الباب، يتكلم بصوت غليظ، اعتقد أنه الجندي الذي يريد الإمساك به، يتجه حسام نحو الباب ويحاول أن يستمع إلى ما يحدث في الخارج.

– أعتقد أن مالك يخفي هذا الغريب في منزله، أريدك أن تجعل منزل مالك تحت عينيك وتقول لي كل يوم ماذا يحدث.. إذا وجدنا الغريب في منزله سيلقى حتفه هو وذاك الغريب.

يرجع حسام للخلف ويتدفق الأدرينالين في عروقه وكل ما يشاهده منظره وهو ملفوف حول عنقه حبل يخنق به ويمسك رقبته بيده وصوت قرع على الباب، يفزع حسام مجددًا ويختبئ، فسمع صوت من بالخارج:

– افتح أيها المغفل أنا مالك.

ليشعر براحة في قلبه ويتنهد ثم يفتح الباب وينظر لوجه مالك بخوف وقلق فيسأله مالك:

= ما بك يا صديقي؟

– لقد سمعت الجنود وهم يتشاورون علينا وكيف سيوقعون بك لأنهم يشكون أنك تخبئني.

– وما العمل الآن؟؟

= لا أعرف، ولكن سأجد طريقة للظهور في هذه المدينة حتى لا أكون غريبًا.

– أخشى أن يمسكوا بك يا أخي.

= لا تخف، سأجد الحل، لكن عليك إخباري الآن بكل شيء.

- سوف أخبرك يا صديقي.

"هذه المدينة لم يطلق عليها اسم مُحدد، هناك من ينسبها للملك الحاكم، وهناك من يسميها أرض الخلاء والفراغ، لكن لها اسم قديم لا يهتم به أحد وهو (زيوس)، لكن لا يبالي أحد بهذه التفاصيل هنا، إنهم يحاولون فقط أن يعيشوا ويبتعدوا عن أي شيء له علاقة بالقلب، ستجد هنا أصنامًا وليسوا بشرًا.. لها قوانين لن تجدها في مدينة أخرى، إذا شعرت بحزن.. فرح.. غضب.. تعب، شيء من هذا القبيل؛ فإنك عار على المدينة ومن يسكن فيها ويجب أن تُقتل، لكن لم أقتنع بهذا السبب أنك تجلب العار، هناك سبب آخر لا أعلم ما هو، لكن سيأتي اليوم وسأعرفه.. هذه المدينة لم تَخُض حربًا منذ وجودها مع أن لها جيشًا قادرًا على الانتصار بكل سهولة، وحدود تجعلها منعزلة عن باقي العالم.. هذا كل ما أعرفه. لكن احذر يا صديقي، إنهم لا يعرفون شيئًا عن الرحمة، فإذا وقعت بين أيديهم فسيكون مصيرك مثل الذي شعر بالحزن".

- ستقوم حرب يا أخي لا تخف، وسأكون أنا من يقودها.

= ماذا تريد أن تفعل يا حسام؟

- الكثير يا صديقي، يجب أن تتغير هذه الزيوس.

= هل ستُحارب مدينة كاملة وحدك؟!

- إذا تطلب الأمر.. سأفعل.

ينتهي الحوار وينهض مالك للنوم وهو يخشى الذي يفكر به حسام ولا يعلم ماذا سيفعل..

وكل ما يفكر به مالك أنه لا يريد أن يلتف الحبل حول رقبته على يد هذه الحجارة، ولكن حسام له هدف مُحدد ويعرف ماذا يفعل من الآن وأنه سيُغير زيوس، يرهقهما التفكير فيسيطر عليهما النوم حتى يأتي يوم آخر يتمنيان أن لا يكون يوم مصيرهما.

* * *

يستيقظ مالك وهو ممتلئ بالخوف بسبب حسام، فلم يحضر له الطعام كعادته ولم يوقظه من نومه وهو ذاهب إلى عمله، ثم استيقظ حسام.

- مالك.. مالك أين أنت؟؟

يسود الصمت فعلم أنه ذهب إلى عمله فبدأ بالقلق من مالك، خائف أن يغدر به كما فعل صديق الرجل الذي قُتل.. أخذ نفسًا عميقًا وبدأ يرتدي ملابسه ليخرج ويعرف كيف يتعاملون وماذا يفعلون، يسير وسط الناس ويحاول أن يُحلل وجههم لكن لا فائدة، هناك القليل على وجهه تعبير حزن اعتقد أنهم يشعرون ولكنهم خائفون من الملك، ثم يخطف نظره فتاة غجرية لون شعرها برتقالي وعينان كالنبات التي تحمله بين يديها، ترتدي ملابس

تختلف اختلافًا بسيطًا عن أهل المدينة، لها نظرة تجعل القلب ينبض من جديد، فلاحظ أنها تقترب منه، يفكر ماذا يفعل، يهرب قبل أن تكشفه وتجعل الجنود يمسكون به أم ينتظر حتى تأتي بنظرتها التي قيدته؟ اقتربت منه كثيرًا وقالت:

- هل أنت من أهل المدينة؟

يصيبه التوتر وهو يقول:

= نعم، إنني من هنا.

فترد عليه وهي تقترب من أذنه:

- إنك تكذب..أنت الغريب الذي أتى ويبحث عنه الجنود.

يبتلع حسام آخر قطرة مياه في فمه وينظر لها فتبتسم له وتقول:

- لا تخف، لن أقول لأحد.

ينظر لها بحيرة:

= من أنتِ؟

تتركه وتذهب ولكن كيف لن تخبر الجنود عني قد يكون لها قلب وتشعر، أو إنها تخطط لتوقع بي.. ظل ينظر لها حتى اختفت عن الأنظار.. لم يشعر بمثل هذا من قبل، إنه سعيد مع القليل من الخوف أن تفصح عنه للجنود، ينهي تفكيره ويقول "سنتقابل مجددًا".

يكمل طريقه والابتسامة والسعادة تملآن قلبه ولكن لا يعلم لماذا! هل هذا لأنه عاش وحيدًا وهذه تجربته الأولى؟ هل هذه الغريبة ستُغير مُعتقداته؟ ينظر

ويرى أن زيوس جميلة ولكن شعبها هو الغريب وليست المدينة. يمر بجانب قصر الملك ويقف ليتأمله. لعلني في يوم أكون أنا الحاكم أو أكون مقتولًا وتنتهي حياتي هنا. قرر العودة إلى المنزل ولم يُبالِ بشيء في هذا الوقت أكثر من هذه الفتاة الغجرية، ظل يفكر في المقابلة وطريقتها وملامحها التي أشعلت شيئًا به قد انطفأ من يوم وفاة أبيه وأمه، فتذكر كيف كان يعاملهما ويأتي دور الضمير في هذه الأوقات..

* * *

- أحضر الأكل ليك يا ابني؟

صوت دافئ وقلب ينبض حنانًا، إنها أم حسام، فيرد عليها بلامبالاة:

= لأ مش جعان..

- مالك يا ابني في حا...

يقطع كلامها ويصرخ في وجهها ويقول:

= قُلت مش جعان واطلعي برا.

تخرج من غرفته مكسورة القلب كالعادة، ثم يأتي والده ليتحدث معه:

- اهدا يا ابني دي أمك، عمرك ما هتلاقي حد حنين عليك زينا.

= شكرًا مش عايز حنية من حد، ممكن تخرج برا أنت كمان؟

لم يتفوه أبوه بكلمة فقط خرج ودعا الله أن يهديه. وغرق في النوم كالأطفال واستيقظ على صوت هاتفه المزعج ليظهر رقم مديره:

– انت فين يا حسام كل دا؟ على طول متأخر كدا!

= أنا آسف يا افندم، أنا جاي أهو في الطري....

– لا ما تجيش تاني، وعدي علينا تاخد باقي حسابك.

ثم أغلق الهاتف وحسام عاد ولا يبالي، أخذ قهوته كعادته وخرجت أمه من الغرفة، نظرت إلى ابنها الوحيد وعرفت ما به من عينه وطريقة رشفته للقهوة.

– ما لك يا ابني؟ فيه إيه حصل؟ شكلك متضايق!!

= اترفدت من الشغل...

– طب اهدا وفهمني حصل إيه.

= ممكن تسيبيني لوحدي دلوقتي ونتكلم بعدين في الموضوع دا.

رجعت إلى غرفتها والحزن يفتت قلبها على ابنها الحزين على الرغم من قسوته، ثم خرج أبوه من الغرفة ليدعمه بشيء حتى لو كلمة:

– ولا يهمك يا ابني هييجي لك شغل أحسن منه، باقول لك إيه، ما تيجي تشتغل معايا في البنك؟

= أشتغل معاك في البنك؟! أشتغل مدير الفرع ولا محاسب؟ بابا انت شغال بتعمل قهوة وبتمسح الأرض، آجي أشتغل إيه أنا؟!

خرجت الكلمات كأسهم من فم حسام مخترقة قلب أبيه لكنه أخفى شعوره ثم ابتسم في وجه حسام ووضع يده على كتفه:

- متشكر يا ابني، بس الشغل مش عيب، وربنا يرزقك باللي تتمناه.

انتهى الحديث وذهب حسام إلى غرفته مستمتعًا بوحدته، ناظرًا إلى جمال الجدران، طموحًا بمستقبله الباهر، ثم استسلم إلى الموت المؤقت لعله ينهي كل شيء..

رن هاتفه المزعج مرة أخرى، استيقظ حسام لينظر إلى الهاتف متوقعًا مديره المزعج لكن كان رقمًا غير معروف..

- أستاذ حسام؟

= أيوة مين؟

- أنا الدكتور أحمد، ممكن حضرتك تشرفنا حالًا في المستشفى عشان والديك هنا عاملين حادثة ولازم حضرتك تيجي.

يقفز من على فراشه، يرتدي ملابسه سريعًا ويركض في الشارع كالمجنون، بجواره بحر الإسكندرية المخيف في الليل، ثم وصل إلى المستشفى ليقابله الطبيب ويحاول أن يهدئه، فيغضب حسام وبدأ يرتفع صوته وقال:

- إيه اللي حصل وهما فين؟

= اهدا طيب وهاشرح لك كل حاجة.

يشير لحسام بالجلوس وبدأ يوضح الطبيب له ما حدث:

- فيه حد اتصل بالإسعاف وبلغنا إن فيه حادثة في الشارع اللي ورانا، وراح لهم الإسعاف وجابهم لي هنا، فحاولنا نتوصل لأي حد عشان لازم ييجي يشوفهم، ففتحنا موبايل والدك لقينا رقمك واتصلنا بيك.

= طب هما فين دلوقتي؟

يقول هذا وقلبه سيكسر ضلعه من سرعته ويأخذ نفسه بصعوبة، لم يشعر بهذا الخوف من قبل، يأخذه الطبيب إلى غرفة العناية ليشاهد والده ملقى على السرير، مستسلمًا للغاية، ووالدته بجانبه كأنها نائمة، والأجهزة في كل مكان بجسديهما، فيضع الطبيب يده على كتف حسام ويقول له:

- خليك أقوى من كدا، كله هيكون أحسن، يقطع حديثه صوت الممرضة وهي تنادي على الطبيب ليسرع حتى ينقذ الموقف.. الموقف هو توقف قَلبي والديه في نفس اللحظة، وكأنهم يرحلان سويًّا.. يرحلان ويتركانه وحده. لا يعلم ماذا سيحدث، يعلم أن الطبيب سيخرج وينهي كل شيء، ولكن لم يستطِع الانتظار، دخل الغرفة مسرعًا وكان الطبيب يحاول إيقافه ويهدئه، وقف حسام مكانه وقد أطلق الرصاصة في جملة قد تكون الأصعب على الإطلاق: "البقاء لله، شد حيلك".

ينظر في وجه الطبيب وإلى أبيه وأمه ويصرخ، لا يتقبل الأمر، فركض عليهما وبدأ في البكاء المُر:

– أنا حزنتكم كتير وكسرت قلبكم وزعلتكم كتير، أرجوكم قوموا ما تسيبونيش لوحدي.

يتوقف الزمن هنا ويتمنى أن يعود الزمن إلى الوراء ولو ساعة. غارق في دموعه والندم وضميره يحاوطانه من كل الأنحاء والحزن يفتت قلبه.

* * *

يعود حسام إلى وعيه ويحاول أن يمسح هذه الذكرى من عقله ولكن كيف؟ ينظر من النافذة وينظر إلى الناس ويقول في داخله:

– ما الفرق بيني وبينهم؟ كنت معدوم الشعور أيضًا. أبي وأمي رحلا وهما غير راضيين عني، رحلا والحزن يسكن قلبيهما بسببي.. هناك أشخاص لديهم شعور ولكن لا يفرقون شيئًا عن أهل هذه المدينة، بل أسوأ منهم. تقطع تفكيره الفتاة مرة أخرى فيشعر بالسلام والفرحة نوعًا ما، يعود مالك وما زال خائفًا من حسام بسبب جنونه، لكن لا يحاول إظهار هذا، فنظر في وجه حسام وجده مبتسمًا وعينيه تضحكان من السعادة فيتحدث معه مازحًا:

– ماذا بك يا حسام؟ إنك متغير بعض الشيء، هل هذه فرحة التي لم أشاهدها في عينيك أبدًا؟!

فيضحك حسام ويقول:

= لا أعلم ما بي يا صديقي، ولكن أشعر بالسعادة بسبب صنم لديكم في هذه المدينة.

- لا أفهم ماذا تقصد!

= لقد رأيت فتاة لا أعتقد أني قد رأيت مثلها هنا، وعندما نظرت في عينها لا أعلم ما حدث بقلبي، كل ما أعلمه أنني سعيد.

- أجُننت يا حسام؟ هل وقعت في الحب؟! لقد قُلت لك مصيرك سينتهي عن قريب.

= سترى كيف سيكون مصيري...

يعود مالك إلى غرفته وهو لا يجد أملًا في حسام، ستنتهي حياته من أجل لا شيء، بينما حسام يؤمن بالتغيير، يؤمن أنه يستطيع تحريك قلوبهم الصماء ومشاعرهم المنعدمة..

وتأتي الفكرة إلى حسام تجعله يقفز ويركض إلى غرفة مالك ويقول له:

- لقد أتت لي فكرة يا أخي لكنني لن أستطيع أن أنفذها بدونك، يجب أن تكون معي.

ينظر إليه مالك وهو خائف من فكرة حسام وبدأ يتوتر ورد عليه:

= لا أريد أن أعرفها وابتعد عني.

لكن لم يتوقف حسام وظل مصرًّا على أن يخبره.

– أنصت فقط، هذه الفكرة ستجعل سكان هذه المدينة يشعرون وقلوبهم تنبض مرة أخرى.

يرفض مالك الاستماع إليه فيخرج حسام وهو خائب الأمل وحزين فقرر الخروج إلى الشارع ليزيل من همه نوعًا ما. ينظر حوله والرياح تصطدم بوجهه، ظل يسير وهو لا يعلم إلى أين يذهب، لكنه اقترب من القصر.

يريد الدخول، يريد أن يُنهي كل شيء، لا يعلم ماذا يقول ولا يعلم ماذا سيحدث به. لكنها لحظة شجاعة كما يطلق عليها البعض فقرر الدخول، ثم بدأ في الركض والخوف والشجاعة يصطحبانه، تردد، يقف، ثم يركض مجددًا.. قد اقترب من الباب ولكن لوهلة يوقفه شخص ما متخفٍّ يتحدث بلغته القديمة، بالعامية!

– استنى، رايح فين؟ أنت عايز تموت نفسك يا حسام ولا إيه؟

ينظر إليه في دهشة وتعجب، كيف يتحدث أحد من مدينة زيوس اللعينة بالعامية؟! وكيف يعرف اسمي؟! أسئلة كثيرة تدور في عقله وما زال ينظر في عينه فقط وهو صامت.. ثم قطع صمته وتحدث مرة أخرى:

– إيه ما لك؟ شُفت عفريت!

ليخرج حسام من صمته وذهوله ويسأله:

= أنت مين؟؟

يخلع الوشاح المتخفي به ولكنه لم يتوقع أن يكون هو! لم يتخيل أنه سوف يأتي إلى هنا، إنه "عمر"!!

= عُمرررررر..

ينطق باسمه وأخذه بين ضلوعه اشتياقًا له أو قد يكون اشتياقًا إلى حياته القديمة.. كانت الفرحة تغمر قلب حسام فذهبا من أمام القصر وابتعدا عنه حتى لا يراهما أحد، فسأل حسام عمر على ما حدث وكيف أتى إلى هنا!

- جيت هنا ازاي؟ أنا قُلت إنك فَلت بجلدك وهربت.

يضحك عمر ويقول:

= أفلت بجلدي إزاي وأسيبك يا صديقي؟

يبتسم حسام وقلبه فرِحٌ من أجل عمر وأنه لم يصبه المنتشر في هذه المدينة واطمأن أنه ما زال يشعر.

- الحمد لله إنك جيت، وهيبقى معايا حد بيفهمني هنا.. بس باقول لك إيه، اوعي تتكلم باللغة دي، اتكلم باللغة العربية عشان ما تتكشفش إنك غريب.

يضحك عمر على حسام ويقول له:

= يعني عايزني أكون زي الكمبيوتر؟!

يضحك حسام أيضًا وكأنه لم يضحك هكذا منذ فترة كبيرة.

– دي هنا اللغة الوحيدة اللي هيفهموك بيها.

= أنت فاهمهم إزاي؟ أنا مش فاهم أي حاجة من لغتهم، وفيه جيش بيجري كل يوم ورايا، أول ما يشوفني باكل من شجرة أو أشرب، ويقولوا كلام غريب بس أنا باجري.

– ما تتكلمش هنا تاني كدا عشان لو حد مسكك هيقتلوك عشان انت غريب عنهم.

= تمام مش هاعمل كدا تاني بس أفهمهم ازاي؟

– أول حاجة ما تتكلمش بالعامية خالص عشان ما حدش يكشفك. وثانيًا سيب لي الموضوع دا. لكن دلوقتي قل لي إيه اللي حصل وجيت هنا ازاي...

بدأ عمر بالكلام وحسام مُنصت إليه باهتمام شديد:

= اللي حصل يا سيدي إن بعد ما انت نزلت السلم ما بقاش فيه صوت، ولا سامع منك أي حاجة كأنك اختفيت، فبدأت أنادي عليك ما لقيتش رد، قلقت في الأول كنت هاقفل الباب دا وأمشي، لكن اسيبك إزاي وبرضه، فكرت إنك لقيت حاجة ومش عايز ترد.

يقاطعه حسام في غضب:

– أتقصد الكنز؟! هل ما زال لديك هذا الطمع؟ أنت لم تأتي إلى هنا من أجلي إذن؛ بل من أجل الكنز!

= اسمع بس وما تقاطعنيش..

يشير حسام لعمر بالاستمرار في الكلام:

= لما ما سمعتش صوت قُلت أنزل، وأنا نازل فضلت أنادي عليك لكن مافيش حد بيرد والدنيا ضلمة، فنورت كشاف الموبايل لحد ما نزلت لقيت ممر ريحته صعبة، فكملت لقيت باب كبير مفتوح شوية فجريت عشان أفتح الباب لقيت نفسي هنا.

– انتظر.. يعني هذا أنك تعيش هنا منذ فترة!

= أيوة بانام في حتة كدا ورا القصر، وشُفتك يوم ما كانوا بيعدموا واحد هنا، بس ما كنتش فاهم بيعدموا ليه، حاولت ألحقك لكن أنت اختفيت. بس لقيتك أهو، فاهم لغتهم وفاهم كل حاجة، يعني تقدر تقول لي مين دول وأنا فين.

يرد عليه حسام بابتسامة سخيفة ويقول له:

– أهلًا بك في أرض الخلاء والفراغ..

يندهش عمر من طريقة حسام، يعتقد أنه اختل ويشبه هؤلاء المختلين.. يتأمل حسام نظرات استغراب عمر له ويتذكر عندما جاء هنا وكان مثله..

- هيا بينا لنذهب يا صديقي.

= هنروح فين؟

- قد قُلت لك لا تتحدث العامية.

= إلى أين يا حسام؟!

- إلى منزل مالك.

لم يرد عمر عليه ولم يسأل من هو مالك حتى، لكنه يقول منزل يعني أنه لن ينام على الطريق مرة أخرى...

يقرع باب المنزل ويفتح مالك وينظر إلى عمر نظرات كثيرة ولحسام فيسأل حسام بتوتر شديد:

- من هذا يا حسام؟

= اسمح لنا بالدخول أولًا وسأخبرك.

- لا لن تدخل قبل أن تقول لي من هذا.

= هل أنت جاد يا مالك؟

يصرخ بوجه حسام ويقول:

- نعم.. إنني جاد.

= هذا صديقي لقد حدث له كما حدث لي.

- غريب آخر.. أنت بالفعل تريد قتلنا جميعًا، ابتعد عني، لا أريد أن أموت، اذهب أنت وصديقك.

أغلق مالك الباب في وجههما. اندهش حسام من الذي فعله مالك. فينظر إلى عمر ويقول مع ابتسامة يأس:

- سننام سويًّا على الطريق يا صديقي.

و هما يسيران بعيدًا عن المنزل ينادي عليه مالك فيدير حسام ظهره له ويكمل طريقه فركض إليه مالك في حزن وخجل:

- أنا آسف يا صديقي، إنني خائف أن أُقتل على يد هؤلاء، ولكن لا يمكنني أن أجعلك تذهب.

= و لمَ لا تجعلني أذهب وأنت تقول أنني أصبحت خطرًا عليك؟

- لأنك أخي وصديقي..

تمتلئ عونهما بالدموع ويعنفان بعضهما، فيحاول عمر أن يمزح كعادته:

- أيمكننا أن نتعانق داخل المنزل قبل أن نقتل هنا؟!

داخلوا إلى المنزل وأعد مالك الطعام ثم اجتمعوا جميعهم فقال حسام لمالك:

- لم أعرف كيف أتيت إلى هنا حتى الآن، هل أكملت هذه المسرحية؟ وبعد ذلك سنسمع عمر كيف قضى هذه الفترة.

مع صوت ضحك يملأ المكان يقول مالك:

- سأخبرك..

تَخلص من القطع الصغيرة من الطعام الملتصقة بيده وأرجع ظهره إلى الوراء وبدأ يقص عليهم ما حدث:

- هل تتذكر السرداب الذي وجدته بعد الحفر؟ كان الفضول يقتلني أريد أن أعرف ما بداخل السرداب نظرت حولي وكانت آخر نظرة لي، لو كنت علمت إنها آخر مرة لكنت اعتذرت لزوجتي على كل شيء صدر مني..

ينظر له حسام ويقول له:

- إننا مشتركان في أشياء كثيرة.. أكمل يا صديقي.

= أخذت مصباحًا معي لأن السرداب كان مظلمًا للغاية، كان الظلام يبتلع الضوء، أحاول أن أرى شيئًا لكن لا يوجد سوى ظلام، فقررت أن أسير حتى اصطدمت بشيء، أدنيت المصباح منه فأصدر ضوءًا خافتًا على جدار كبير مملوء بالرسومات الغريبة والكلمات الغير مفهومة، وبعد ذلك اتضح أنه باب.. لا ليس بابًا؛ إنها بوابة ضخمة، ووجدت في منتصفها مكانًا لمفتاح، فأخرجت المفتاح من حقيبتي الصغيرة ووضعته في البوابة دون تفكير فانفتحت البوابة...

يقطعه عمر ويقول له:

- وجدت نفسك على الأرض ونظرت خلفك لم تجد البوابة؟

= نعم هذا ما حدث لي.

- في البداية لم أفهم لغتهم، جميعهم ينظرون لي وكأنني لص، ثم أشار إليَّ شخص غريب فاقتربت منه، لكنه كان يشير إلى الجنود ليمسكوا بي.. كنت غريبًا مثلك يا حسام، كنت أرتدي ملابس العمل، خوزتي، وحقيبتي الصغيرة وقميصًا، لم أفكر في شيء عندما اقترب مني الجنود فركضت سريعًا حتى قابلت المشعوزة.

يندهش عمر ويسأل مالك:

- من هي المشعوزة وماذا تفعل؟

= إنك تشبه صديقك، كثير الأسئلة.

يضحك حسام ومالك ثم قال حسام:

- أكمل..

= فعلت معي مثلما فعلت معك ولكنني أختلف عنك.. لقد قبلت هذا الشيء دون أن أفكر، شربته، شعرت بدوار، حلقي جاف للغاية، فسقطت لا أعلم ماذا حدث، لكن وجدت نفسي على قارعة الطريق والناس تمر حولي

ولا أحد يُبالي بأمري، فنهضت وجدت امرأة تدنو مني وتعطيني شيئًا غريبًا آخر، رفضته فعرضته مرة أخرى بهدوء بعد ذلك خرجت من هدوئها وقالت: اشرب من هذا؛ سيجعل منك شخصًا مرة أخرى، هذه المرأة كانت ليلى..

يقفز عمر من مكانه ويسأل مالك:

- من هي ليلى؟ احكِ لي عنها أكثر.

يبتسم حسام وينظر إلى عمر ويقول له:

- هل ما زلت تعشق النساء كعادتك؟

= نعم إنهن أجمل شيء في الكون.

يرد عليهم مالك:

- هلا صمتم حتى أكمل؟!

يعتذران له ويسمحان له بالتحدث ليُكمل:

- بعد أن أعطتني هذا الدواء بدأت أشعر بالجوع مرة أخرى، أخذتني إلى منزلها ثم حكت لي عن هذه المدينة، ثم قالت لي "أهلًا بك في أرض الخلاء والفراغ" وعلمت أنهم لا يشعرون بشيء مطلقًا..

يسأل عمر وهو لم يفهم كلام مالك وظنه مُختلًّا:

- ماذا قُلت؟! هل قلت أنهم معدومو الشعور؟

= هذه هي الحقيقة يا صديقي، وإذا علم أحد أنك تشعر ستقتل.

يصمت الجميع وينظرون إلى بعضهم ثم يسأله حسام في ارتباك:

- عمر.. ابنك، هل نسيت ابنك؟

= بالطبع لا، لحسن حظي أنني تركته مع أبي.. اشتقت إليه كثيرًا، هو من يذكرني بوالدته.

يحاول مالك أن يلطف من الأوضاع:

- هل حكيت لنا كيف كانت الفتاة وماذا فعلت بك لتجعلك هائمًا هكذا؟

يتكلم عمر ويسأل حسام:

= قبل أن أحكي أريد أعرف نحن في أي عام؟

يضع حسام يده على كتف عمر ويقول له:

- إننا في بداية الخليقة يا صديقي، نحن في عام 980...

حسام لا يحب أن يعبر عن مشاعره قبل التأكد منها، لا يعلم ماذا حدث في قلبه.. هل هذا ما يطلق عليه الحب من أول نظرة أم إعجاب بصفاتها؟ ولكن مع من؟ مع شخص من أهل هذه المدينة! يحاول أن يهرب من الموضوع

بالصمت فعلم مالك أنه لا يريد التحدث، فقط صمتهم وسأل حسام وهو يقدم له كوبًا من الماء:

– ما هي الخطة أيها الغريب؟!

ينظر لمالك ويشعر بالحماس فقال:

– هذه الخطة ينقصها شخص حتى تتم وتسير الأمور كما يجب...

= من هو؟؟

– ليلى..

= ليلى!! لماذا ليلى؟

– هي الوحيدة التي تمتلك الدواء.

لم يفهم مالك ما يفكر به حسام.. نهض حسام، أخبرهم أنهم سيذهبون إلى ليلى وهناك كل شيء سيظهر.. لكن قبل أن يغادر أحد هناك من يقرع الباب، يتوتر الجميع وينظرون إلى بعضهم، فيسأل مالك من على الباب؟ ليُجيب صاحب الصوت الغليظ.. إنه هو مجددًا، فقال حسام في عجلة وصوت خافت:

– انتظر يا مالك، إنه يعلم أننا هنا، كان يراقب المنزل ويريد أن يوقع بنا.

= اهرب الآن أنت وعمر قبل أن يراكُما ونقتل جميعًا.

يهربان من نافذة المنزل من الناحية الأخرى ثم يركضان ويتواريان بين الأشجار يراقبان الأوضاع حتى يذهب صاحب هذا الصوت المزعج.. لكنه لم يذهب وحده، إنه يمسك بمالك، يأخذه معه، وظهر على مالك من إشارات جسمه أنه يريد أن يبرر موقفه، والخوف يملأ وجهه، لا يعلم ماذا يفعل حسام، إن هذا بسببه، كان مالك مُحقًّا سيُقتل بسببي.. تتبعا مالك والجندي حيث ذهب، لقد أخذه إلى قصر الملك، واقتربت الشمس من الشروق، فحاول حسام أن يدخل إلى القصر لكن أوقفه عمر وقال له:

- ماذا ستفعل؟

= سأدخل القصر وأُخرج مالك وأقول إنني الغريب الذين يبحثون عنه.. هو لم يفعل شيئًا وسيموت من أجلي.

- و هل تعتقد هذا حلًّا؟! ماذا لو كان شيئًا غير ذلك؟

= لا أعلم ماذا أفعل!

- انتظر وسنعرف خلال ساعات.

= تعال معي.

- إلى أين؟!

أمسك حسام يد عمر وركض إلى بيت ليلى ليستنجد بها، وصل إلى البيت يقرع ثم يقرع.

تفتح له فيقول لها:

- إننا في ورطة، سيقتل مالك بسببي الآن.

= وماذا تريد مني أن أفعل؟

- أريدك أن تساعدينا، سيموت على يد هؤلاء الملاعين.

تنظر إلى عمر وتقول له:

= لا لن آتي معك، اذهب من هنا.

خاب ظن حسام وقد قرر أنه سيقول إنني الغريب.. حاول عمر أن يهدئ حسام لكن ركض حسام كالمجنون في الطريق حتى يحاول إنقاذ صديقه، يركض وعمر خلفه يحاول أن يمسك به فلم يستطِع، وبعد محاولات من عمر للإمساك به أوقعه على الأرض.

- انتظر أيها المجنون، سيقتلونك، حاول أن تفكر.

ينفجر حسام باكيًا لأجل صديقه، ويقوم من على الأرض لكن أمسكه عمر يحاول أن يهدئه حتى وصلا إلى القصر وظلا يراقبان القصر حتى خرج منه جندي يجمع الناس وينادي عليهم أن يجتمعوا، فشعر حسام بالذعر وقال لعمر:

- سيقتلون مالك سيقتلونه...

= كيف علمت؟ إنني لا أفهم لغتهم!

– هذا الجندي يجمع أهل المدينة ليروا مالك وهو يعدم.

الشعور بالذنب يلتهم حسام وهو يرى صديقه يُقتل لأجله.. اجتمع أهل المدينة جميعًا أمام القصر، ثم خرج الجندي ووقف على المنصة التي يوجد بها حبل المشنقة، وبيده خطاب ملفوف، ثم خرج مالك خلفه مقيدًا، هذا المشهد تكرر مجددًا، فرفع صوته وهو يفتح الخطاب الملفوف:

"أنا الملك أرخيدوس، لقد دعوتكم اليوم لتشاهدوا هذا الشخص الذي خالف نظام مدينتنا العظيمة، وثبت أنه يخبئ في منزله هذا الغريب الذي تبحث عنه الجنود، وعندما علم أننا أوقعنا به جعله يهرب ومعه شخص آخر، قد يكون غريبًا مثلهم، فقررت أنا الملك أرخيدوس بالحكم على هذا المذنب بالموت"..

يغلق الجندي الخطاب وينتظر الإشارة من الملك، وحسام يقع على الأرض يشاهد مالك والحبل يلتف حول عنقه ليقتله، فنهض ليركض على المنصة لكن أمسك بيده عمر يقول له:

– اهدأ إنهم حولنا في كل مكان، سيقتلوننا.

لكن قبل أن يشير الملك صوت صخب مرتفع جدًّا أتى من الخلف، إنها الأحصنة، يركضون في كل مكان، بدأت الناس تتفرق ولوهلة جاء من خلف

المنصة شخص مُلتف بأقمشة سوداء في كل جسمه، قطع الحبل وركض هو مالك والجنود خلفهما يطاردونهما لكن اختفيا عن الأنظار.

فضحك حسام ضحكًا هستيريًّا وركض هو وعمر في وسط الناس يهربان قبل أن يمسكهما أحد، وبعد أن ابتعدا وقفا يرتاحان قليلًا ويسأل عمر:

– من هذا الشخص الذي ساعد مالك على الهرب وأعتقه من الموت؟

= لا أعلم، لكنني سعيد، الآن يجب أن نعثر عليهم.

فيجد من يضع يده على كتفه من الخلف ويلتف لينظر له، إنه مالك!

– مالك، أنت بخير يا صديقي؟؟

= نعم إنني بخير، لولاك ما كنت حيًّا الآن.

– أنا! لكن أنا لم أفعل شيئًا.

يظهر من خلف مالك الشخص الملتف بالأقمشة السوداء ويزيل كل هذا فتظهر ليلى.. يندهش حسام ويقول:

– ليلى! لكن كيف؟

= بعد أن رأيت الهلع في عينيك وحبك لمالك خرجت خلفك وركضت نحو "الإسطبل" فتحته لجميع الأحصنة وركضت خلف المنصة وقطعت الحبل.

يبتسم حسام ويشكرها على ما فعلت ثم دخل عمر وقال:

- إلى أين سنذهب الآن؟

فتُجيب ليلى عليه:

= إلى منزلي، لا أحد يعرفني، وهناك لن نجد من يكشفنا.

يوافق حسام وينظر إلى السماء وإليهم مرة أخرى.

- جيد لأننا نحتاجك يا ليلى معنا في الخطة.

= خطة؟!

- نذهب أولًا وسأخبركم ما سيحدث.

وفي أثناء سيرهم للعودة إلى المنزل خرجت الفتاة الغجرية من بين الأشجار، يترنح شعرها في الهواء كملكة جمال تتوج بحصولها على لقب أجمل فتاة على هذه الجزيرة.. غرق حسام في هيامه بها، قطعت هذه الملكة نظرات حسام واقتربت منه وقالت:

- ماذا بك أيها الغريب؟ هل وقعت في الحب؟

استجمع أفكاره وتذكر أنه لا يوجد حب هنا.. فإذا قال نعم فسيعلم ما يحدث له، لكنه في صوت يظهر عليه الوقوع في الحب مع خليط من الإنكار قال..

- لا أيتها الغجرية لا أعرف ما تقصدينه.

اقتربت من أذنه كما فعلت في آخر لقاء وقالت كلمات تخرج منها رائحة جعلته يشعر كأن قلبه سيخرج منه.

- إنك تكذب وسأثبت لك..

أشارات بيدها على منزل بعيد تميزه الأشجار المنتشرة في الأرجاء.

- هذا منزلي، أنتظرك الليلة.

ثم ذهبت فكان يتأمل تفاصيلها المتبقية من جسدها المُثير.. جاءت ليلى وأخرجته من هذه الحالة بسؤال يغرس الخوف والشك في قلب حسام:

- هل تصدقها؟؟

= نعم ولمَ لا؟

- هل جُننت؟ إنها من أهل المدينة.. أقصد أنها لا تشعر، وأعتقد أن هذا فخ وتدبر لك مكيدة.

نظر عمر في عين ليلى وشعر بالنار الملتهبة في داخلها، من هذه الفتاة وكم الغيرة التي تقتلها، لكنها تخفي هذا بطريقة فاشلة، ظهر عليها في أول تجربة.. أعتقد أن حسام لا يشعر أو يحاول استنتاج هذا، ولا يعتقد أن خروجها لإنقاذ مالك بل لتنقذ قلبها المغمور في الحزن واليأس، وكأن حسام فتى أحلامها الذي كانت تنتظره.

انتهى حديثهما وعاد الجميع إلى المنزل وحل الليل عليهم، فجهزت ليلى الطعام للجميع، وعندما كانت تقدم الأطباق حدثها عمر بصوت خافت:

- هل تحبين حسام؟

نظرت إلى عمر وعيناها وقلبها يقولان نعم، لكنها ظلت صامتة راسخة وأكملت وبدأ الجميع في تناول طعامه.

- سأذهب الآن..

نطق حسام بهذه الجملة وكأنه سهم طار أصاب قلب ليلى.. توقفت عن الطعام وتكلمت معه بحدة.

- ما زالت مُصرًّا أن تذهب إليها! ستوقع بك وإن كنت لا تصدق سآتي معك وأثبت لك.

= أوافق، لكن ماذا ستفعلين؟

لم تجِب خرجت هي وحسام. قلب ليلى يعلم أن هناك شيئًا غريبًا، كيف لفتاة من أهل المدينة أن تشعر؟ لا تريد أن يذهب، تمنت أن يحدث شيء لا تعلم ما هو أو كيف سيحدث لكنه أمل فقط. منزل الفتاة الغجرية أمامهما، لاحظ وجود حركة بجانب منزلها فأمسك بيد ليلى واختبأ بين الأشجار.

- ماذا تفعل يا حسام؟

= اخفضي صوتك، أعتقد أنني رأيت حركة كثيرة بجانب منزل هذه الفتاة.

- ماذا سنفعل؟؟

= انتظري سنرى ما سيحدث.

وبعد دقائق قليلة وجد أن رئيس الحرس اتجه إلى المنزل وفتحت له هذه الكاذبة، نظر إلى ليلى والخجل منتشر في جميع خلايا جسده.

- لقد كنتِ على حق، إنها كاذبة.

ابتسامة الانتصار أشرقت في وجه ليلى، وظلام الهزيمة في قلب حسام، نهض هو وليلى وعادا إلى المنزل ولم يتفوه بكلمة أخرى.

سأله عمر عما حدث لكنه ذهب إلى غرفته وأغلق الباب وانحصر كالمريض بين الجدار الكئيب..

ثم جاءت ليلى من بعده جلست مع عمر ومالك، فسألها ماذا حدث ولمَ حسام غاضب!

لم تقل شيئًا سوى كلمتين:

- حدث ما توقعته..

حسام جالس في الغرفة ضامًّا رجليه ورأسه بينهما وأفكاره تقتله كالعادة ولكن لماذا؟ لأنها خدعته، أم لأنه وثق بها وهو لم يرها سوى مرتين؟

رفع رأسه ونفض غبار التفكير من عليه وفتح الباب وقال بصوت فيه انتقام..

- من يريد العودة إلى عالمه مجددًا؟!

اندهش جميعهم واستمروا في النظر إليه والدموع تملأ عينيه فبدون أي مقدمات وقفت ليلى وقالت:

- سأكون معك..

ابتسم عمر لما حدث من ليلى ووافق على الانضمام ولكن مالك قال في توتر وخوف:

- لا أريد أن أموت مجددًا يا صديقي، فأتمنى أن تكون لديك خطة محكمة.

= ستكون كذلك يا صديقي..

جلسوا جميعهم كالأطفال وحسام هو الأب بدأ في التكلم:

- قبل كل شيء الذي سنبدؤه سنُنهيه سويًّا.. سنُحاول إيجاد البوابة، سنبحث في كل منزل وكل مكان في المدينة..

قطعه مالك وسأله:

- كيف سنتمكن من الدخول إلى كل منزل؟ وكيف سَنجول في زيوس وهم يبحثون عنا!

= سنرتدي ملابس الجنود وندخل المنازل وكأننا نبحث عن الهارب والذي ساعده..

فتكلم عمر في اندفاع قاطعًا حديث حسام:

– من أين نأتي بملابس الجنود؟! وكيف سأتعامل معهم وأنا لا أفهم لغتهم؟!

قامت ليلى من مكانها ومعها الحل.

– أمر الملابس سأتدبره أنا.. وأنت يا عمر ستكون مع مالك.. لكن الآن أريد حسام أن يأتي معي.

= إلى أين؟؟!

– هل تشك مجددًا؟! لا تسأل ستعرف كل شيء.

انتهي الحديث وخرج حسام ومعه ليلى متخفيين. اتجها إلى (الإسطبل). سأل حسام عن سبب ذهابهما إلى هناك.. نظرت إليه فقط وأكملت سيرها، وعند وصولهما توقفت ليلى ووقف حسام، طلبت منه أن لا يتحرك من مكانه حتى تأتي والظلام جائح في المكان، وصوت الصهيل في كل الأرجاء. تسللت ليلى إلى منزل صغير بجانب هذا (الإسطبل) ودخلت وحسام يراقب الأجواء. وبعد مدة قصيرة خرجت ليلى وهي حاملة الملابس على يديها ثم أوقفها جندي...

– ماذا تفعلين هنا ومن أنتِ؟

أخرج السيف من جنبه ورفعه في وجه هذه الفتاة المسكينة. ركض حسام ودفع الجندي ليسقطه على الأرض.. أمر حسام ليلى بالهرب، نهض الجندي وبيده السيف وحسام واقف أعزل ولا يعرف كيف يبارزه.

يحاول تفادي ضرابات السيف المترنحة من حوله ولوهلة أمسك حسام يد الجندي قبل أن يضربه ةأخذ منه السيف وقتله...

ظل حسام واقفًا مكانه يشاهد المنظر وليلى تمسك بيده ليذهبا.

- هيا بينا يا حسام قبل أن يرانا أحد.

عادا إلى المنزل ولم يتفوه حسام بكلمة..

V V V

فعلك لشيء يُخالف مبادئك لأول مرة..

يلف حول عنقك حبل الضمير..

v v v

سقوط مبنى كبير فوقك أيسر من السقوط في دائرة الضمير.. جلس حسام صامتًا وهم يحاولون التكلم معه، فتكلمت ليلى وشرحت لهم ما حدث، فقفز مالك من مكانه والخوف تملكه تمامًا.

- قتل جندي! هل تعلم ماذا سيحدث؟! سنموت جميعًا لا مفر من هذا.... حسنًا، أنا لن أشترك معكم.

حسام ما زال صامتًا، ينظر فقط إليهم وإلى كلام مالك، ثم صرخت ليلى في وجهه وقالت له:

- اذهب أيها الجبان.. اذهب لا نريدك معنا.

في لحظة خروج مالك أمسك حسام بيده والدموع في عينيه:

– سنكمل ما بدأناه.. لا أعلم كيف حدث ذلك، لم أتوقع أنني سأقتُل في يوم ما.. هل ستذهب؟!

نظر إلى حسام ثم نظر إلى ليلى والغضب في وجهها وقال له:

– معك يا أخي.. ماذا سنفعل الآن؟!

= ننام وفي الصباح سنُنهي كل هذا..

نام الجميع لكن حسام أفكاره تقتله ويفكر في الأمر والمشهد يتكرر أمامه كثيرًا تلتف أفكاره حول عقله والضمير ممسك بعنقه جعله يختنق، لم تبقَ لديه طاقة بعد فاستسلم إلى النوم مرهقًا.

* * *

صباح يوم آخر والتاريخ مجهول لا يعرف غير أنه في عام 980...

صوت ضجيج في الخارج والباب قد ينكسر من قوة يد الذي يقرعه.. استيقظ الجميع مذعورين وليلى طلبت الهدوء منهم لتفتح.. تزحزح الباب فكشف عن صاحب الصوت الغليظ.

– ليلى.. هل علمتِ ما حدث الليلة الماضية؟

ليلى بارعة في إخفاء مشاعرها فتقول له بثقة:

– لا.. ماذا حدث؟

= وجدنا جنديًّا من جيشنا مقتولًا.

- ما دخلي بهذا؟!

= نحن نبحث ونسأل أهل المدينة قد يكون هناك من رأى ما حدث!

نفت ليلى معرفتها بشيء ثم ذهب وأغلقت الباب فخرج حسام سألها ماذا كان يريد فشرحت له.

ظل حسام صامتًا وشعر أن هناك خطأ فسأل ليلى مجددًا:

- لكن كيف يهتمون لأمر هذا الجندي وهم ليس لديهم مشاعر وشعور الانتقام يجعلهم يبحثون عن الجاني؟

= إنك محق.. هناك شيء غريب وسنعرفه.

خرج مالك كعادته؛ الوسواس القهري يعبث بعقله:

- يجب أن ينتهي كل شيء في أسرع وقت.

= سيحدث لا تخف.

قال عمر هذه الجملة وهو يضع يده على كتف مالك ليَطمئن.. أخرجت ليلى الملابس وأعطتها ثم وقفوا يشاهدون بعضهم.. جلباب قصير لونه أحمر فوقه واقٍ من الحديد.

سأل عمر حسام وهو يتفقد منظره:

- ينقصنا شيء!

= ما هو أيها المحارب؟!

ضحك الجميع ساخرين من عمر.

- السيف.. أين السيف؟!

= لا نحتاج إليه؛ لدينا قلب يشعر أنه أقوى من السيف.

ارتفع صوت الضحك بينهم لكن لم يفهم أحد قصد حسام.. تذكر عندما قتل الجندي وقلبه كان مثل السيف يقتله.. ثم خرجت ليلى وهي ترتدي ملابس الجنود والواقي الذي لم تتمكن من حمله لضعف جسدها، ابتسمت لحسام وهي تزيح شعرها خلف أذنها فابتسم هو أيضًا ثم استعد الجميع. خرج عمر ومالك معًا في اتجاه، وحسام وليلى في اتجاه آخر.

حسام وليلى معًا يتجولان في المدينة، نظر حسام إلى ليلى وسألها:

- كيف جئتِ إلى هنا؟!

V V V

اِنعدام المشاعر أيسر من اصطناعها...

v v v

ليلى

فتاة في العقد الثاني تعيش مع أبيها وحدهما، لها عينان تلمعان كاللؤلؤ الأسود والشعر الذهبي المُجعد، قصيرة الطول، نحيفة الجسد..

12من ديسمبر

في يوم ليس له نهار أو مصدر من مصادر الضوء، والغيوم تخنق القمر والوقت يمر بصعوبة.

أتذكر هذا اليوم بكل تفاصيله..

- أمي أين أنتِ؟

= أنا في العمل يا عزيزتي ومعي مفاجأة لكِ.

- حقًّا أمي.. إنني أنتظرك.

ثم أتت والدتها، كانت في حالة مُتأخرة من السرطان، وكانت دائمًا تخفي عنهما حتى لا يحمل أحدهما عبئًا.. اشترت الفُستان الذي كانت تحلم به ليلى، لم تشعر سوى أنها تعصر ضلوع والدتها فرحًا.

وكعادة ليلى ووالدتها تجلسان آخر الليل وتشاهدان السماء والنجوم.. وقد أطلاقتا على كل نجم اسمًا.. هناك نجم ساطع لامع أطلقت عليه والدتها اسم ليلى، والنجم المجاور له هو نجم والدتها، فكان النجم الذي بجوار نجم ليلى ينطفئ، فكانت تخشي أن تكون هذه رسالة تبعث لها من الكون، وكأنه يفقد كنزهُ، ثم ذهبت والدة ليلى للنوم وبعدها بثوان سمعت صوت صراخ أبيها يصطحبه بكاء من الصدمة، لقد خسر نجمته وانطفأ ضوؤه من السماء، فزعت وركضت مسرعة حتى شهدت والدتها مستلقية على الأرض ووجهها أزرق ولا تتنفس، فكان المشهد مثل شلال من الجليد يسقط على صدرها والألم قد فتت قلبها على فراق أمها.

- انتظر من أنتما؟!

قطع الجندي حديثهما وظهر التوتر على ملامح حسام لكن ليلى كانت سبيل النجاة:

- إننا جنود الملك من داخل القصر، لقد أرسلنا للبحث عن المجرم.

= أعتذر وبلاغا تحياتي إلى الملك.

أكملا طريقهما وحسام في ذهول مما حدث.. فلما رأت ليلى في عينه علامة استفهام شرحت له:

- إنك تتساءل كعادتك الآن كيف أقنعت هذا المغفل؟

= أتمنى أن أعرف، لكن أخشى أن تكون إجابتك باب قبرنا..

- ما زالت لا تثق بي؟!

قالت هذه الجملة والحزن يمتلك قلبها وكانت على وشك الذهاب لكن أمسك حسام بيدها..

- آسف، لقد كنت وحيدًا، ليس لي صديق أو عائلة، فهناك الكثير من الأشياء التي أفتقدها، أعتقد أنني كنت مثلهم قبل أن آتي إلى هنا.

لمعت عين ليلى وشعرت بحرارة يده ثم طلب منها أن تكمل قصتها..

- دعنا نعود أولًا إلى المنزل.

عاد حسام وليلى لكنهما لم يجدا عمر ومالك، قاما بتبديل ملابسهما وليلى تجهز الطعام، ثم توقف حسام عن الطعام وطلب من ليلى أن تحكي كيف أتت إلى هنا..

* * *

1:13 بعد منتصف الليل

– أبي أين أنت؟ لقد تأخرت كثيرًا!

= آسف يا ابنتي، أنا في طريقي إليكِ.

أغلقت الهاتف وهي تنظر من نافذتها على نجم أمها اللامع في السماء تحكي له ما حدث، صوت أقدام أبيها على السلم، تنظر إلى الباب، تنتظر صوت مفتاح ليفتح أبوها ثم دخل ولكنه ليس على ما يرام، هناك اختلاف في وجهه، يشبه الطفل الذي كسر زجاج النافذة ويخفي ذلك عن والدته.

– ما بك يا أبي؟! هل أنت بخير؟

= لا يا حلوتي؛ هناك مشكلة كبيرة.

خلع حذاءه ثم جلس وليلى جالسة بجانبه منتظرة لتسمع ما يقول.

– شاهدت صديقي وهو يزور في الحسابات ويريد أن أشترك معه.

= هل قبلت وستفعل!!

– أقبل؟؟ أعلم أننا نحتاج إلى مال ونريد بعض الدعم، ولكن لن أفعل ذلك مطلقًا، وسأخبر كل المصنع بفعلته.

ابتسمت ليلى ابتسامة فخر بأبيها الذي لديه صفة قد تكون معدومة.. أنهى أبوها الحديث لأنه مرهق ويريد الاستراحة، نامت ليلى أيضًا لتستيقظ على يوم آخر.

9:23 صباحًا...

أعدت فنجانًا من القهوة وكتابًا للشعر في يدها، غارقة في القراءة ليرن هاتفها.

- أنا أحبك كثيرًا.

صوت ضجيج وصراخ حول أبيها ثم أغلق الهاتف.

- أبي.. أبي أين أنت؟! ماذا يحدث؟ أبي!

صارت كالمجنونة، ارتدت ملابسها، ركضت في الشارع إلى عمل أبيها وعقلها لا يرحمها، ثم وقفت لتلتقط أنفاسها حتى وصلت وهي ترى أباها على سرير على وشك الدخول إلى عربة الإسعاف.

- انتظر، إلى أين ستأخذه؟ انتظر، ماذا حدث؟

وضع أحد الذين كانوا حولها يده على كتف ليلى وحاول أن يهدئها:

- اهدئي يا ابنتي، أبوك رجل شريف، كان يدافع عن الحق.

صعدت سيارة الإسعاف مع أبيها بعد أن تأكد المسعف أنها ابنته، تحركت السيارة وهي تنظر إلى أبيها وتبكي بكاءً مُريرًا.

- لا يا أبي، لا تذهب، أحتاج إليك، سأعيش وحيدة يا أبي! أرجوك استيقظ، قل لي يا حلوتي، أبـــــي...

= إنه مصاب بذبحة صدرية نتيجة ارتفاع ضغط الدم، أعتقد أنك تحبينه كثيرًا.

نظرت إلى المسعف وعيناها ممتلئتان بوحدة واغتراب وشخص منهزم لم يعد له طاقة بعد.

- ماذا حدث له؟

= طعنه صديقه من خلفه ولفق التهمة له أنه هو الذي فعل هذا بعد أن كشف سرقته، وقبل أن يعلم الجميع بأمره.. أتمنى أن يكون كل شيء بخير.

وصلوا إلى المستشفى، وبعد محاولات كثيرة لإنقاذ أبيها لكن حُسم الأمر، انتهى كل شيء.. أظلمت الرؤية وصمت تام، فقط دموع تسير على الوجه.

- هل تساعدينا في إجراءات دفن والدك؟

صوت ليس له مصدر ولكنها وافقت لترى والدها للمرة الأخيرة.

V V V

نحن لا ندري ما هي الحياة..

كيف يمكننا إذن أن نعرف الموت؟!

v v v

أشخاص كثيرون يرتدون ملابس سوداء، وصوت البكاء من كل ناحية، لكن ليلى كانت صامتة تمامًا، والنظرات تهاجمها، كيف كل هذا الهدوء وآخر شخص في حياتك تحت التراب؟!

بعد أن انتهت المراسم المعتادة، الجميع ذهب وهم يمسكون بيد أطفالهم وهي تنظر إليهم، أصبحت وحيدة!

كانت تسير في المقابر بين الموتى وهي لا تبالي بشيء، ولوهلة سمعت صوتًا يصدر من أحد القبور وكأن أحدًا يستغيث، صاحت بصوت عالٍ ليأتي أحد لكن لا يوجد سوى الموتى، أخذت حجر وحاولت كسر القفل الموجود على الباب مرارًا وتكرارًا حتى انفتح الباب. وجدت سلمًا، تنادي: هل من

أحد هنا؟ لا يجيب أحد لكن ما زال الصوت يتردد كثيرًا وبدأ يرتفع، نظرت حولها لتتفقد المكان لأن الفضول انتصر عليها، لمست قدمها أول السلم وقلبها يخفق مضطربًا، وبعدها وجدت طرقة طويلة مُظلمة، لكن في نهاية الممر مكان مُضيء ذهبت إليه راكضة بعد انغلاق المقبرة عليها، وجدت بوابة اعتقدت أنها مغلقة لكنها اكتشفت أن البوابة مزحزحة. فتحت البوابة ثم فقدت الوعي. ثم أتيت إلى هنا هذا كل شيء.

نظر حسام لها وهو مستمتع بحديثها الذي لم يُقاطعها فيه وأمسك بيدها :

- لا تخافي، أنا بجانبك.

قرع الباب وكان خلفه مالك وعمر متلهفين لقول شيء:

- أعتقد أننا وجدنا البوابة..

لمعت عين حسام وظهر فوق رأسه قوس قزح ثم استنشق هواء الأمل.

- أين؟! أين هي البوابة؟

= لمَ هذه اللهفة؟! الأمر ليس سهلًا.

قطع مالك الضوء وهواء الأمل عن حسام، اختفت ابتسامته وسأله:

- لماذا ليس الأمر سهلًا، وكأنه في قصر الملك!

نظر مالك إلى عمر ثم رد عليه عمر:

- إنه في قصر الملك يا صديقي..

= كيف عرفتما؟!

مالك أرهق من البحث في المنازل وعمر الحارس الشخصي لمالك كانا بالقرب من قصر الملك ثم سمعا..

- هل وجدت الغريب؟

= لا.. من أين أتى هذا الغريب؟!

- قد يكون أتى من قصر الملك.

= قصر الملك؟ لا أفهم!

- الملك لديه بوابة زمنية لا يعرف أحد بأمرها سوى الجنود في القصر والملك.

حركة غريبة جعلت الحارس صَمت ثم أخرج سيفه متجهًا نحو مالك وعمر ليظهر مالك بملابس جيش وكعادته الخوف مسيطر عليه.

- ماذا تفعل هنا أيها الجندي؟

= لا شيء يا سيدي أنفذ الأوامر فقط.

- ابتعد عن هنا، ابحث في مكان آخر.

ذهب مالك وأشار لعمر أن يأتي خلفه دون أن يلاحظ أحد ثم عادا للمنزل.

- هذا كل شيء، هل لديك خطة لدخول القصر؟!

= لا؛ ليس لدي خطة، ولكن يجب أن ندخل القصر.

دخول القصر ليس أمرًا سهلًا فهو شيء أشبه بالانتحار، استسلم حسام، لم تعد لديه طاقة.. يا لهم من أوغاد، ليس لديهم سوى العمل والنوم، لا يأكلون ولديهم جميع موارد الطعام! حتى مصطلح حيوانات لا ينطبق عليهم، يركضون وراء السلطة فقط، لكن يجب أن ينتهي كل ذلك..

* * *

صباح يوم آخر يشبه الأيام السابقة وقد يكون ذات اليوم...

العثور على إبرة في وسط كومة من القش أسهل من الخروج من هذه الملعونة.. حسام واقف في النافذة وأتى عمر حزينًا على ما يحدث وعلى صديقه:

- فيمَ تفكر يا أخي؟

= لا أعرف يا عمر، أشعر بحبل ملفوف على جسدي وأعجز عن التحرك.

قرع باب المنزل بقوة خلعت قلب حسام، فطمأنه عمر بأن الذي في الخارج مالك وليلى.

- وجدنا البوابة، وجدناها وسنخرج الليلة يا رفاق.

يقول مالك هذا والسعادة تملأ المنزل، وللمرة الأولى يكون مالك سعيدًا، قاطعه حسام:

- كيف وجدتها؟

= ليلى تعلم كل شيء ولديها خطة.

نظر حسام وعمر إلى طوق النجاة ينتظران الإنقاذ، ثم جلست وشرحت لهم:

- أنا أعرف قصر الملك، كنت أعمل فيه لفترة عندما جئت إلى هنا.. كان الملك لديه غرفة لا يقترب منها أحد، ولا يعلم الذين يعملون في القصر ماذا يوجد بها.. عندما سمعت ما قاله مالك أمس تذكرت هذه الغرفة، تسللنا أنا ومالك، نظرنا من نافذة الغرفة وجدنا بوابة كبيرة مغلقة.

= كيف سنأتي بالمفتاح؟

وقف مالك من مكانه والحماس يمتلكه ثم قال:

- لدي المفتاح.. المفتاح الذي دخلت به.

عاد حسام من الاستسلام ثم امتلأ صدره بالهواء قائلًا:

- احسموا أغراضكم سنعود الليلة إلى منازلنا...

* * *

قد تكون الليلة غير كل ليلة.. ليلة تفوح منها الأمل، السعادة تملأ أوجه الجميع. بدأ حسام في الاستعداد وتدبير خطة، لكن عقله مشوش ولا يعرف سوى أمر واحد وهو العودة قبل أن يصبح مثلهم. استعد الجميع ثم خرجوا وهم يرتدون ملابس الحرس ويتبعون ليلى في وسط ليل وظلام في كل المدينة والسماء بها غيوم ولا يوجد صوت إلا أنفاسهم المتسارعة ورائحة الخوف تفوح منهم..

اقتربوا من القصر، الذي حوله جنود كثيرة، حاولوا الاختباء وراء الأشجار الكثيفة فبدأت ليلى بالإشارة ليتسللوا إلى الداخل.

- انتظري كيف سندخل في وسط هؤلاء الجنود؟

كعادة حسام وأسئلته فلم تعِره انتباهًا سوى أن أمرته بالصمت، ركضت ليلى وركض وراءها الجميع وداخلوا القصر من بوابة خلفية كانت تعرفها عندما هربت من القصر قبل أن يكتشف أحد أنها تشعر...

يسيرون على أطراف أقدامهم للوصول إلى الغرفة حتى وجدها مالك في نهاية الطرقة فهرع الجميع إليها مثل طفل تائه ثم وجد أمه، حاول مالك فتح الباب كثيرًا والعرق يسيل من جبينه مع أصوات عمر وحسام وليلى وصوتهم مرتفع بأن يسرع، حاول مرارًا وتكرارًا حتى اضطر إلى كسر الباب ثم وجدوا

البوابة لكن هناك ضجيج من القصر صوت الجنود مسرعين بسبب كسر الباب.. تكلمت ليلى:

- ادخلوا سأحاول أن أشتتهم وآتى خلفكم.

رفض حسام لكن كان قرارًا مُتأخر لأن ليلى ركضت إلى بداية الممر ليمسكوا بها، ثم حاول حسام اللحاق بها عالمًا بما سيحدث لها، لكنه لم يستطِع بسبب إمساك مالك بيده:

- ماذا تفعل أيها الغبي؟ أمامنا البوابة هيا ندخل.

= ما بك يا مالك؟ لن أترك ليلى وحدها، يبدو أنك أصبحت مثلهم!

سمعوا صوت الجنود يتجهون نحوهم أمسك حسام يد عمر ومالك واختبؤوا في الغرفة ثم أغلق الباب، تتسارع قلوبهم، وأصوات الجنود تقترب من الغرفة.. لكن لم يعثروا على شيء فاطمأن قلب مالك وحاول فتح البوابة لكنها لم تكن البوابة.. إنها خزينة بها ممتلكات الملك.

صاح مالك من غضبه جعل الأرجاء تهتز:

- أين البوابة؟! هل خدعتنا ليلى؟

بدأ مالك في البكاء وعمر صامت تمامًا ثم انفتح الباب ليكشف عن جنود مسلحين.. أمسكوا بهم جميعًا.

وضعوهم في سجن بالقصر، ضيق مظلم يشبه الحفرة، مقيدين في الحائط والماء يملأ الأرض وبكاء مالك.

- أهذه النهاية؟ هل سنموت؟

= لا أعلم يا أخي، لكنها تبدو النهاية.

جاء جندي وأمسكهم من قيودهم وأخرجهم حتى يراهم الملك. أدخلوهم إلى المكان الذي يجلس به الملك ثم جعلهم جاثين أمامه.

- هل تعلمون؟ كنت أبحث عنكم كثيرًا، لكن غباءكم قادكم إلى هنا. هذه المرة لم تفلتوا بفعلتكم هذه وستقتلون صباحًا.

ثم صاح بصوت عال وأمر أحد الجنود بتجهيز مشانق لهم وأن يضعهم في السجن حتى الصباح ويضع ليلى معهم.

دخلوا السجن مرة أخرى ومعهم ليلى، سألها حسام عما حدث لها!

- عندما ركضت إليهم أمسكوا بي وأخذوني إلى الملك علم كل شيء وعلم أنني من حرر مالك.

صمت الجميع محاولين التمتع بآخر ساعات لهم في الحياة. ثم قطع عمر تأملهم.

- يا رفاق هناك أمر غريب.. لقد كنت أفهم ما كان يقوله الملك!

نظر حسام إليه فتعجب وقال:

- فهمت؟.. هذا يعني أنه مثلنا..

الحقيقة ليست دائمًا مُرة، قد تكون النجاة من فخ الصيادين، لكنهم اكتشفوا هذا مؤخرًا. لقد حل الصباح، آخر صباح سيحل عليهم.. حل

الجنود قيودهم وأخرجوهم أمام الناس والمشانق مثل مشهد مالك. بدأ الجندي في فتح الخطاب واتهم فيه عمر وليلى وحسام ومالك بأنهم الغرباء الذين داخلوا المدينة مؤخرًا، وسيحكم عليهم بالموت. أخذهم الجندي ولف حول عُنقهم حبال المشانق ثم نظر حسام إلى ليلى التي كانت بيساره وأمسك يديها ومالك في يمينها أمسك يدها أيضًا ومالك أمسك بيد عمر وأغلق الجميع عيونهم ثم....

- حسام.. اصحى، يا حسام كل دا نوم؟!

استيقظ حسام على صوت عمر ونظر حوله، وجد نفسه على سريره في منزله، في عالمه، ووجد بجانبه الرسالة وعمر حامل بيده حقيبة الأدوات ويقول له:

- قوم عشان نعرف فيه إيه ورا الباب الخشب..

ابتسم حسام ثم ضحك مثل المجانين وعانق عمر بشدة وقال له:

- كان كل هذا حلمًا! كل هذا ليس إلا مُجرد خَيال!

النهاية

V V V